البحث الرابع

التجليات الحضارية للتسامح والتعايش السلمي في حضارة الأندلس عند المستشرقين المعاصرين
دراسة تحليلية نقدية

إعداد الدكتور

إبراهيم عبد الصابور سعيد أحمد

المدرس بقسم الثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

جامعة الأزهر

التجليات الحضارية للتسامح والتعايش السلمي في حضارة الأندلس عند المستشرقين المعاصرين

دراسة تحليلية نقدية

د/ إبراهيم عبد الصابور سعيد أحمد

مدرس بقسم الثقافة الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر.

الإيميل: ibrahemahmed.13@azhar.edu.eg

الملخص:

يأتي هذا البحث ليبرز صورًا من التعايش السلمي، الذي كان يسود حضارة الأندلس – هذه الصور المشرقة التي برزت تجلياتها في جميع المجالات وعلى كافة المسارات الحضارية، وقد جاءت كتابات وأبحاث متعددة عنها –، ومن ثم يأتي هذا البحث ليؤكد ذلك ولكن من زاوية أخرى، من خلال شهادات كبار المستشرقين المعاصرين المتخصصين في دراسة تاريخ الأندلس، وفي هذا أعظم دليل على ذلك التعايش والتسامح، كما يتم من خلال هذا البحث رد ودحض أراء المستشرقين المجحفين عن الحضارة الإسلامية، الذين يتحدثون بإجحاف عن تاريخ الحضارة الإسلامية بشكل عام، وتاريخ حضارة المسلمين في الأندلس بشكل خاص... إن مما لا شك فيه أن ما يقدمه هذا البحث من شهادات هؤلاء المستشرقين المنصفين عن حضارة الأندلس الذين صَوَّروا تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس على وجهها المشرق، فيه أكبر رد على من اتهموا حضارة المسلمين في الأندلس بأنها كانت طامة وعقبة في تاريخ شبه الجزيرة أيبيريا مما أدى إلى تخلفها عن السياق الحضاري الأوروبي، وكذلك يجلي هذا البحث صور التعايش بين المسلمين وغيرهم في العديد من المحاور الدينية والعلمية والثقافية واللغوية والفنية والمعمارية.... كل ذلك من خلال أقوال وكتابات مستشرقين متخصصين في تاريخ حضارة الأندلس، كما يبين البحث أنه يتم تسويق صور مجتزأة عن حضارة العالم الإسلامي، وإضفاء صبغة عامة على الوقائع والأحداث الفردية، التي هي من

قبيل الاستثناءات أو كان لها ملابسات تاريخية، يجب أن توضع وتدرس في سياقاتها، يأتي هذا الاجتزاء من باب التشويه والتنقص لتلك الحضارة، ولأجل أهداف فكرية أو قومية، ثم يخلص البحث في نهايته إلى عدة نتائج منها: أن حضارة المسلمين في الأندلس، قد شكلت أبهى وأرقى صور التعايش السلمي على مر التاريخ الإنساني، وكذلك الدور الإيجابي للتسامح والتعايش في ازدهار الحضارة الأندلسية؛ حيث شجع التفاعل بين الثقافات على تطور العلوم والفنون والآداب، وساهم في ازدهار الحركة العلمية، ومن توصيات البحث: ضرورة الاهتمام بدراسة الكتابات الاستشراقية المعاصرة، لاسيما في جانبها المنصف، وضرورة التعاون بين المؤسسات العلمية والثقافية المختلفة في مراجعة الكتابات الغربية عن الحضارة الإسلامية.

الكلمـات المفتاحية: الحضارة، الأندلس، الاستشراق المعاصر، التسامح، التعايش السلمي، المنجزات الحضارية.

Civilizational manifestations of tolerance and peaceful coexistence in the Andalusian civilization according to contemporary orientalists - an analytical and critical study

Dr. Ibrahim Abdel Sabour Saeed Ahmed

Lecturer in the Department of Islamic Culture, Faculty of Islamic Propagation in Cairo, Al-Azhar University, Egypt.

Email: ibrahemahmed.13@azhar.edu.eg

Abstract:

This research comes to highlight images of peaceful coexistence, which prevailed in the Andalusian civilization - these bright images whose manifestations appeared in all fields and on all civilizational paths, and many writings and researches have come about them - and then this research comes to confirm that but from another angle, through the testimonies of the great contemporary orientalists specialized in studying the history of Andalusia, and in this is the greatest evidence of that coexistence and tolerance, as this research is done to respond and refute the opinions of the unfair orientalists about the Islamic civilization, who speak unfairly about the history of Islamic civilization in general, and the history of the Muslim civilization in Andalusia in particular... There is no doubt that what this research presents from the testimonies of these fair orientalists about the Andalusian civilization who depicted the history of the Islamic civilization in Andalusia in its bright face, is the greatest response to those who accused the Muslim civilization in Andalusia of being a calamity and an obstacle in the history of the Iberian Peninsula, which This led to its backwardness from the European cultural context, and this research also reveals the images of coexistence between Muslims and others in many religious, scientific, cultural, linguistic, artistic and architectural axes... all through the sayings and writings of orientalists specializing in the history of the Andalusian civilization. The research also shows that fragmented images of the civilization of the Islamic world are being marketed, and a general character is given to individual facts and events, which are exceptions or had historical circumstances, and must be placed and studied in their contexts. This fragmentation comes from the door of

distortion and belittling of that civilization, and for intellectual or national goals. Then the research concludes at the end with several results, including: that the civilization of Muslims in Andalusia formed the most splendid and refined images of peaceful coexistence throughout human history, as well as the positive role of tolerance and coexistence in the prosperity of the Andalusian civilization; The interaction between cultures encouraged the development of science, arts and literature, and contributed to the flourishing of the scientific movement. Among the research recommendations: the necessity of paying attention to studying contemporary orientalist writings, especially in their fair aspect, and the necessity of cooperation between various scientific and cultural institutions in reviewing Western writings about Islamic civilization.

Keywords: Civilization, Andalusia, Contemporary Orientalism, Tolerance, Peaceful Coexistence, Civilizational Achievements.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، المتوج بتاج: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ} [سورة الأنبياء:١٠٧]، **وبعد؛؛؛**

فإن المتأمل في تاريخ حضارة المسلمين في الأندلس، يدرك مدى الظلم والتجني الذي تعرضت له تلك الحقبة التاريخية من حياة المسلمين، قامت حضارة الأندلس وازدهرت على مدار سبعة قرون، ودام الوجود الحضاري للمسلمين فيها طيلة عشرة قرون، تلاقحت فيها اللغات والشعوب والأجناس، والتحمت وتجمعت فيها شتى الحضارات التي نقلها المسلمون من الحضارات السابقة كحضارة (الفرس، والروم، والحضارة الهندية... وغيرها، وضبطوها بميزان الإسلام)، كذا ما أبدعه المسلمون في أراضي الأندلس.

إنَّ من الظلم البَيِّن أن يتحمل المورسكيون[1] تبَعِة اندثار حضارة الأندلس، إذ إنه قد تجمعت الأسباب الداخلية التي مَثَّلَ المسلمون السبب الأكبر منها، مع العوامل الخارجية المتمثلة في الهجمات المتعددة التي كان يقوم بها ملوك نصارى الشمال، كذلك الضعف العام في العالم الإسلامي الذي حال دون إنقاذ هذه الأمة القابضة على الجمر، المتمسكة بدينها تحت نير محاكم التفتيش، وهل هناك دليل أكبر من تمسكهم بدينهم طلية ثلاثة قرون، حتى تم التهجير والنقل القسري، والإبادة الجماعية..

(١) تعددت المسميات التي أُطلقت على مسلمي الأندلس، ومنها الموريسكيون، فكلمة موريسكي مشتقة من مسلم، وهم الذين أُكرهوا على اعتناق الكاثوليكية وكانوا يعيشون على هامش المجتمع في الأندلس، وكانوا محل استهداف محاكم التفتيش في الأندلس، وفي الحقيقة ظل هؤلاء الموريسكيون المنصرون بالقوة مسلمين، ولكن مع الاستخفاء بدينهم، وأُلحق هذا المسمى كذلك بكل مسلمي الأندلس بعد عام ١٥٢٦م. ينظر: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ميكيل دي إيبالثا، ترجمة: جمال عبد الرحمن، صـ٢٦:٢٧، المشروع القومي للترجمة، طـ١، سنة: ٢٠٠٥م. تاريخ مسلمي الأندلس الموريسيكيون، "حياة ومأساة أقلية"، أنطونيو دومينقير، وبرناد بنثنت، ترجمة عبد العال صالح طه، صـ٢٠، دار الإشراق للطباعة والنشر، طـ١، سنة: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م. التاريخ الوجيز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، جوزيف بيريز، ترجمة: مصطفى أمادي، صـ٦١:٦٢، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة – أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، طـ١، سنة: ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

وفي إطار ذلك تم محو وطمس معالم حضارة المسلمين وكتاباتهم في تلك الفترة، ولم يتبق منها إلا النذر اليسير الذي نقل عبر الرحالة العرب على هيئة تراجم للأعلام والبلدان، أو ما سجله المورسكيون المهجرون، إلا أن الواقع المعماري والمدني والزراعي واللغوي لا يزال شاهدًا على التاريخ، حقًا إن ما نقل إلينا من تاريخ الأندلس رُغم كثرت الكتابات فيه، لا يعدو أن يكون عشر تاريخها.

ورُغم كثرة الكتابات عن الحضارة في الأندلس، إلا أنه لا يعدو أن يكون أحد أمرين:

الأول: نفث هموم السقوط المروع، والتغني بحضارة قد زالت.

الثاني: تاريخ تمحور حول الحكام والأمراء والخلافات القائمة بينهم، لدرجة يتعذر معها القول بوجود حضارة، والسؤال كيف قامت فيها أعظم حضارة مع هذا السجل التاريخي الحافل بالنزاعات والتقاتل على الحكم؟ ذاك أن الجزء الأكبر من تاريخ تلك الحضارة، لم يأخذ حقه من النقل والدرس، ومن هنا جاء هذا البحث ليجلي إحدى مظاهر تلك الحضارة وهو ذاك التعايش والتسامح السلمي المتجسد فيها.

قصة هذا البحث:

في بداية هذا البحث كان الهدف والمنطلق هو الرد على كتاب: خرافة الفردوس الأندلسي (المسلمون والمسيحيون واليهود تحت الحكم الإسلامي في إسبانيا في العصور الوسطى)، لمؤلفه: داريو فرناندیز موريرا(١).

The Myth of the Andalusian Paradise Muslims, Christians, and Jews under Islamic Rule in Medieval Spain, Darío Fernández-Morera, Published by ISI Books, Intercollegiate Studies Institute, New York, 2016

إلا أنني بعد أن قمت بترجمة الكتاب وقراءته لاحظت التجني الظاهر والواضح، بل أكثر من ذلك عندما يحاول المؤلف تحويل الأحداث والوقائع الإيجابية في هذه الحضارة

(١) خرافة الفردوس الأندلسي، المسلمون والمسيحيون واليهود في ظل الحكم الإسلامي في إسبانيا في العصور الوسطى، داريو فرناندیز موريرا، ترجمة: ازدشير سليمان، شركة جليس للنشر والتوزيع، عدد الصفحات: ٤٦٠ صفحة، سنة النشر: ٢٠٢٢م. لم يتمكن الباحث من الحصول على النسخة العربية لعدم توفرها أثناء البحث، فقام بترجمة النسخة الأصلية للكتاب.

(حضارة الأندلس) إلى أمور سلبية، بتبريرات هزلية لا ترقى للرد عليها، فضلًا عن أن تكون شبهة تنطلي على أحد العقلاء، ومن هنا جاء تحويل مسار هذا البحث ليكون بعنوان: التجليات الحضارية للتسامح والتعايش السلمي في حضارة الأندلس عند المستشرقين المعاصرين. وفيه الرد على أكثر الشبه التي تعرض لها هذا الكتاب، وترددت في كتابات من سبقوه، من المستشرقين المجحفين، هذا الرد بأقلام مستشرقين متخصصين في حضارة الأندلس، عن طريق إبراز الوجه الحضاري المشرق لتلك الحضارة.

ولا تزال هذه الكتابات الموضوعية تزداد، لا سيما في هذا العصر الحديث، وانطلاقًا من هذه الكتابات، وردًا على التجني على حضارة الأندلس يأتي هذا البحث في إبراز النقد الذاتي للاستشراق من جهة، ومن جهة أخرى في إبراز مظاهر الروعة في حضارة الأندلس.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث الرئيسية في الكشف عن مظاهر وآثار التمثلات الحضارية للتسامح والتعايش السلمي في حضارة الأندلس كما طرحها المستشرقون المعاصرون، كذا الرد على أبرز الشبهات التي أُثيرت حول تلك التمثلات الحضارية، ومن ثم الكشف عن مدى دقة هذا الطرح وموضوعيَّته لدى المستشرقين المعاصرين.

أسباب البحث وأهميته:

١- ما تمثله الحضارة الأندلسية من تفاعل فكري وحضاري بين العالم الشرقي الإسلامي، والعالم الغربي النصراني.

٢- أنها تمثل أبرز ظاهرة في التسامح والتعايش السلمي بين العقائد المختلفة والثقافات المتنوعة والشعوب المتعددة، من مسلمين ونصارى ويهود، من عرب وبربر ومولّدين[١] وقوطية[٢].

---

(١) المولودون أو المولدين هم الجيل الذي ولد من آباء مسلمين سواء كانوا عربًا أو بربرًا، وأمهات أعجميات سواء كن إسبانيات أو غير ذلك. ينظر: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، د/ حسين يوسف دويدار، صـ٤١، مطبعة الحسين الإسلامية، ط١، سنة: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) القوط الغربيون هم أحدى القبائل أو الشعوب البربرية، التي هبطت من شمال أوربا وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية، واكتسحت ممالكها إبان ترنحها للسقوط، إذ كانوا يسكنون شواطئ البلطيق

٣- كونها تمثل بوابة انتقال وتأثير للثقافة العربية الإسلامية إلى العالم الغربي، إذ لا تزال قواميس المعاجم اللغوية في اللغة الإسبانية تزخر بالعديد من الكلمات العربية التي تم استخدامها، ولا يوجد لها بديل في اللغة الإسبانية، إذ إنها من مبتكرات المسلمين في الأندلس.

٤- ضرورة التفاعل مع الكتابات المختلفة عن الإسلام، ونقد ما ورد فيها من شبهات ومغالطات.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إبراز محاور التعايش السلمي في حضارة الأندلس، أو بالأحرى إبراز التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب، المسلمين وغيرهم، وتبديد الأفكار المغلوطة، التي كانت سببًا في تصاعد موجات التطرف.

كما يهدف أيضًا إلى:

- الذود عن الحضارة الإسلامية من خلال النقد الذاتي لشبهات المستشرقين.
- التوصل إلى نقاط اتفاق من خلال الكتابات الغربية، يتم من خلالها تعزيز وتحقيق التعايش السلمي للمسلمين في البلاد الغربية.

تساؤلات البحث

يأتي هذا البحث للإجابة عن سؤال رئيس مفاده: **ما أبرز صور التسامح والتعايش السلمي في حضارة الأندلس من خلال كتابات المستشرقين؟**

الجنوبية، وهم يشبهون الوندال في العادات والتقاليد، وهم قبيلة متوحشة كغيرها من القبائل التي اكتسحت ممالك الإمبراطورية الرومانية، حكموا إيبريا (الأندلس) قبل الفتح العربي الإسلامي، أما القوط الشرقيون: فقد احتلوا إيطاليا، وتركوا أبناء عمومتهم من القوط الغربيين يأخذون مكان بعض القبائل الجرمانية الجافية، ويدقون أطناب حكمهم بإسبانيا في القرن الخامس الميلادي. ينظر: دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، محمد عبد الله عنان، ٢٨/١، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة: ٢٠٠٣م. وصفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى، عنى بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: ليفي بروفنسال أستاذ تاريخ المغرب العربي بجامعة الجزائر، ومعهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس، ومدير فخري لمعهد الأبحاث المغربية العليا بالرباط، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط٢، سنة: ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م. وقصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ١٥، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، د.ت.

ويتفرع من ذلك عدة أسئلة، وهي:

١- كيف أَثْرَتْ الأمم المتعددة (العرب – البربر – القوط المولدين) التعايش الحضاري؟

٢- ما مجالات العطاء الحضاري الذي قدمته حضارة الأندلس للتاريخ؟

٣- هل كانت عقبات في طريق التعايش السلمي في الأندلس؟

٤- ما أبرز الشبهات التي تمسك بها الطاعنون في اتهام حضارة الأندلس بالتعصب، وما الرد عليها؟

٥- هل سلك المستشرقون طريق الإنصاف في دراستهم لحضارة الأندلس؟

٦- ما سبل الإفادة في الواقع المعاصر من التعايش السلمي في حضارة الأندلس؟

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي[١]، والمنهج الاستقرائي[٢]، والمنهج التحليلي، والمنهج النقدي[٣]، حيث قام الباحث بتتبع أبرز كتابات

(١) المنهج الوصفي هو: محاولة الوصول إلى المعرفة الدقيقة والتفصيلية لعناصر مشكلة أو ظاهرة قائمة، للوصول إلى فهم أفضل وأدق أو وضع السياسات والإجراءات المستقبلية الخاصة بها، مناهج البحث العلمي، د/ محمد سرحان المحمودي، صـ٥٦، دار الكتب – صنعاء، ط٣، سنة ٢٠١٩م.

(٢) المنهج الاستقرائي هو: "الطريقة التي بها تصدر حكماً يعم مفردات موضوع ما، بناء على دراسة فاحصة لكل هذه المفردات أو لبعضها، فالأول يسمى بالاستقراء التام، والثاني يسمى بالاستقراء الناقص. ينظر: المختار في أصول البحث العلمي، د/مختار عطا الله، صـ١٦٣، ط١، دار الهاني، القاهرة، مصر، ٢٠٢٢م.

(٣) هو المنهج الذي يقوم على وصفٍ منظمٍ ودقيق لمحتوى نصوص مكتوبة أو مسموعة، من خلال تحديد موضوع الدراسة وهدفها، وعادةً يتم تحليل المضمون ونقده من خلال الإجابة على أسئلة محددة سابقا، وهذا المنهج يقوم على دراسة الإشكالات العلمية المختلفة تفكيكًا أو تركيبًا أو تقويمًا؛ من أجل الوصول إلى حلول عِلمية وعملية لهذه الإشكالات. يُنظر: مناهج وأساليب البحث العلمي (النظرية والتطبيق)، د. ربحي مصطفى عليان، ود. عثمان محمد غنيم، صـ٤٨، ط ١، سنة: ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان– الأردن. وأبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، د. فريد الأنصاري، صـ٢٩٩، ط١ دار السلام– القاهرة، سنة: ٢٠٠٩م.

المستشرقين[١] التي تتحدث عن حضارة الأندلس، ثم تحليلها وبيان أوجه الإنصاف فيها، وفي ذات السياق تم التعرض لنقد بعض الأفكار المغلوطة والشبهات المثارة حول التعايش السلمي في الأندلس، كل ذلك وفق معطيات المنهج النقدي.

الدراسات السابقة:

بعد البحث في سجل المكتبات الجامعية ومواقعها على الإنترنت، لم يعثر الباحث على أية دراسة تناولت الحديث عن رؤية المستشرقين للتسامح الحضاري في الأندلس، وإن كانت هناك بعض الدراسات التي تحدثت عن التسامح في حضارة الأندلس، من خلال الكتابات والمراجع الإسلامية وغيرها، وهذا ما لا يتم التطرق إليه في هذا البحث، **فحدوده:** الحديث عن تجليات التسامح والتعايش السلمي في حضارة الأندلس، من خلال الكتابات الاستشراقية.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة: وفيها التعريف بالبحث وأسبابه وأهميته وخطته.

التمهيد: نبذة تاريخية عن إسبانيا قبل الفتح الإسلامي.

المبحث الأول: مظاهر التسامح والتعايش في الأندلس. ويحتوي على ستة مطالب:

المطلب الأول: التسامح الإسلامي مع أهل الأديان الأخرى في الأندلس.

المطلب الثاني: الحياة الثقافية والعلمية المزدهرة ومشاركة غير المسلمين فيها.

المطلب الثالث: تمثيل الأقليات في مناصب الدولة وإداراتها.

المطلب الرابع: زواج المسلمين من غير المسلمات ونظام الأحوال الشخصية.

المطلب الخامس: نماذج لمدن وقرى كانت تضم مختلف الأديان.

المطلب السادس: وثائق الصلح بين المسلمين والنصارى.

المبحث الثاني: آثار التسامح على الإنجازات الحضارية. ويحتوي على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تطور العلوم والفنون والآداب نتيجة للتفاعل بين الثقافات.

---

(١) فلا يتم استقصاء كل كتابات المستشرقين في هذا البحث على حجمه.. وإنما يتم إعطاء نماذج تمثل كل توجهات المستشرقين في دراسة حضارة الأندلس.

المطلب الثاني: ازدهار الحركة العلمية والترجمة بفضل التبادل المعرفي.

المطلب الثالث: الإنجازات المعمارية والحضرية في ظل بيئة التعايش السلمي.

المطلب الرابع: تأثير التسامح على حركة التجارة والازدهار الاقتصادي.

المبحث الثالث: أبرز الشبهات حول التسامح والتعايش السلمي في الأندلس.

ويحتوي على أربعة مطالب:

المطلب الأول: حالات التمييز والاضطهاد للأقليات.

المطلب الثاني: تطرف الفرق الدينية والانغلاق على الذات. (شهداء قرطبة).

المطلب الثالث: موقف رجال الدين المتشددين تجاه التسامح.

المطلب الرابع: تأثير الصراعات السياسية والحروب على التعايش.

المبحث الرابع: آثار التسامح الأندلسي في حضارة أوربا والعصر الحديث.

ويحتوي على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: آثار حضارة الأندلس على أوربا.

أولًا: التأثيرات اللُّغوية والثقافية.

ثانيًا: التأثيرات الاجتماعية.

ثالثًا: التأثيرات المادية الاقتصادية.

المطلب الثاني: موقف المفكرين الغربيين من تجربة التسامح الأندلسية.

المطلب الثالث: إمكانية الاستفادة من تلك التجربة في الوقت الحاضر.

ثم الخاتمة وفيها النتائج والتوصيات.

دكتور: إبراهيم عبد الصابور سعيد.

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة – جامعة الأزهر

التمهيد: نبذة تاريخية عن إسبانيا[١] قبل الفتح الإسلامي.

يظن البعض إنه بمجرد مرور وقت طويل على الأحداث التاريخية، أن هذا الحدث قد قتل بحثًا، أو أنه نوع من التعايش والتغني بالماضي، وبالتالي لا يجب إضاعة الوقت في بحثه مرة أخرى.

إلا أن التعمق في دراسة الأحداث لا يخلوا من فوائد، وذلك عند دراستها من زوايا مختلفة لم يتم التطرق إليها، ففي ذلك سبل متجددة للإفادة من الحدث التاريخي، كما أنه قد يتم العثور على وثائق جديدة حول موضوع من شأنه أن يعيد النظر إليه مرة أخرى، بل إن طرح تساؤلات حول حدث معين، قد يؤدي بدوره إلى الشك في صحته منطقيًا وواقعيًا، وهكذا تصبح المسلّمات التاريخية مجرد احتمالات قابلة للمناقشة.

وأبرز الأمثلة على ذلك من تاريخ حضارة الأندلس، حدثين في بدء تاريخها:

الأول: حرق طارق بن زياد للسفن التي عبر بها، إذ رغم شيوع تلك القصة، إلا أنه عند التحقيق التاريخي، تبين عدم صحتها، وعدم قبولها للنقد التاريخي[٢].

الثاني: تلك الخطبة الفصيحة التي خطبها طارق في جنده، والتي يرد فيها: "العدو من أمامكم والبحر من ورائكم....إلخ"!!! طارق بن زياد البربري حديث العهد بالإسلام والعربية، ينطلق لسانه فصاحة بهذا الكلام العربي الجزل؟؟ مما يدل على أنها صنعت وابتكرت بعد ذلك ونسبت إليه من باب تمجيد صورة الفتح والقائد الفاتح[٣].

---

(١) يُقصد بإسبانيا أينما وردت في البحث بلاد الأندلس التي حكمها المسلمون، والتي تشمل حاليًا دولتي إسبانيا والبرتغال، إلا إذا خصص هذا الاسم بدولة إسبانيا الحديثة، أو جاء مقترنًا بدولة البرتغال.

(٢) يراجع في ذلك كتاب: إحراق طارق بن زياد للسفن أسطورة لا تاريخ، د/ عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع – القاهرة، ط١، سنة: ١٩٩٥م. فقد أورد فيه المؤلف العديد من الأدلة على عدم صحة هذا الخبر، لا من ناحية السند أو الثبوت أمام النقد التاريخي.

(٣) يراجع في ذلك: خطبة طارق بن زياد بين الشك واليقين، سعد بوفلاقة، صـ١٤٠:١٤٤، مجلة التراث العربي–مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ٩١ – السنة الثالثة والعشرون – يوليو: ٢٠٠٣ – رجب ١٤٢٤هـ. وإحراق طارق بن زياد للسفن أسطورة لا تاريخ، د/ عبد الحليم عويس، صـ٢٤، وصـ٣٠ وما بعدها. ومن الجدير بالذكر أن المؤرخين اختلفوا في ثبوت الخطبة بين مثبت ونافٍ، والذي يميل إليه الباحث أن الصدق التاريخي في الخطبة أمرٌ مرجح، إذ كان من المعتاد أن يَحث القائد

وكما يقول مالك بن نبي[١]: "لدراسة التاريخ جوانب متعددة، وهذه الحضارة تعد مظهرًا من مظاهر الحياة والفكر الجماعي، ومن هذا الجانب يُعدّ التاريخ دراسة اجتماعية، إذ يكون دراسة لشرائط نمو مجتمع معين، لا يقوم نموه على حقائق الجنس، أو عوامل السياسة، بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوافرة في رقعة تلك الحضارة"[٢].

ومن هنا تأتي هذه الدراسة عن أحد الخصائص الاجتماعية لحضارة الأندلس – تلك الحضارة التي يُمكن وصفها بأنها: مجتمع التسامح والتعددية الذي التقى فيه المسلم العربي مع البربري مع المولّد واليهودي والقوطي والنصراني، فتشكل منه مجتمع التناغم والعطاء الحضاري المشرق.

تحتل التجربة الأندلسية مكانة مرموقة في التاريخ والحضارة؛ نظرًا لهذا الامتداد التاريخي لفترة ثمانية قرون[٣]، وكذلك ما أبدعته تلك الحضارة في المجالات المعرفية والفنية والجمالية

جنوده على الاستبسال في ساحة القتال. أما ثبوت القصة بتلك الألفاظ الجزلة القوية من طارق، مخاطبًا بها جيشًا أغلبه من البربر، فهذا أمرٌ مستبعد، ولا يثبت أمام النقد التاريخي، ولا عند مقارنة المصادر التي أوردت نص الخطبة.

(١) مالك بن نبي، (١٣٢٣ – ١٣٩٣ هـ = ١٩٠٥ – ١٩٧٣م)، مفكر إسلامي جزائري. ولد بها في مدينة قسنطينة، ودرس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط، وتخرج مهندسًا ميكانيكيا في معهد الهندسة العالي بباريز، وزار مكة، وأقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره باللغة الفرنسية نحو ٣٠ كتابًا جلها مطبوع، ترجم بعضها إلى العربية، وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية، بالقاهرة، وتولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري (١٩٦٤). ينظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، (٢٦٦/٥)، دار العلم للملايين، ط١٥، سنة: ٢٠٠٢م.

(٢) مشكلات الحضارة – وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، تقديم عمار طالبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، صـ٢٣ باختصار، دار الكتاب المصري، سنة: ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

(٣) من المشتهر بين المؤرخين أن حضارة الأندلس تقع بين سنة: ٩٢هـ/٧١١م إلى ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م تاريخ سقوط غرناطة، إلا أنه من الناحية الحضارية يمكن القول إن وجود هذه الحضارة استمر بعد ذلك أكثر من قرن وهو تاريخ الطرد الجماعي للمسلمين من إسبانيا، سنة: (١٦١٤م)، إذ شكل المسلمون بعد سقوط غرناطة عامل حيوي ومهم في تاريخ إسبانيا، في كل مجالات الحضارة (الزراعية والصناعية والفكرية)... فـ"الحضارة العربية الإسبانية لم تغرق في العدم عندما فتحت غرناطة أبوابها لهذين الملكين في الثاني من كانون الثاني عام ١٤٩٢م وارتفعت راية القديس جاك على قمة الحمراء. إنها سوف تستمر في ممارسة

والفكرية، والتي شكلت بصمات واضحة وقوية في ثقافة وعقلية العالم الغربي، فقد "دَامَتِ الأندلس بَعدَ العَرَبَ زعيمة للفكر والمدنية واحتفظت بكامل إشعاعها، فَفَتَنَتْ سَادَتَهَا الجُدد، واضحت لِلغرب كما كَانَتْ أَثِينَا لِرُومَا عِندَمَا غَدَتْ مقاطعة في إمبراطوريتها. فرغم كونها مغلوبة نَسْتَطِيعُ أن نقول بأنها استولت هي نفسها على قاهريها"(١).

كذلك ألقت حضارة الأندلس بظلالها في الفكر والثقافة المغربية، في مراكش وغيرها من بلاد المغرب الإسلامي.

حال شبه جزيرة أيبريا(٢) قبيل الفتح الإسلامي

كان سكان شبه جزيرة أيبريا يحكمهم القوط الغربيون بعد هزيمة القبائل الجرمانية، إلا أن الأوضاع لم تختلف قليلًا عن ذي قبل، فلقد سام القوط أهل البلاد التعسف والظلم، وكانوا بمثابة عبيد لهؤلاء الحكام، الذين لم يسلم منهم أحد – سكان القرى أو المدن– فلقد بالغ حكام القوط الغربيين في فرض الضرائب على سكان شبه جزيرة أيبريا، للنفقة منها على الدولة في المقام الأول، فقد كان سكان أيبريا في عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب(٣).

يصور "ستانلي لين بول"(٤) هذه الحالة بقوله: "كانت إسبانيا حينما اقترب المسلمون من

تأثيرها بعمق، لا بل أكثر من ذلك، فإنها ستتابعه في إسبانيا المسيحية نفسها دوماً، وتشاء الضرورة أيضاً بأن تستمر الى حين طرد المغاربة نهائيا، ثم تنتقل بعد ذلك مراكزها، حفاظاً على بقية من إشعاعها، صوب الشواطئ الأفريقية وبصورة خاصة إلى مراكش وتونس". يُنظر: حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٢٩:٣٠، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٥.

(٢) شبه جزيرة أيبريا أو الأندلس أو إسبانيا: هي الجزء الجنوبي الغربي من قارة أوربا، وتشمل في الوقت الحاضر دولتي إسبانيا والبرتغال، واسم الأندلس في اللغة اليونانية إشبانيا، وقيل اسمها في القديم: إبارية، ثم سميت بعد ذلك: باطقة، ثم سميت: إشبانيا، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها. ينظر: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ١٤/٢، شركة سفير، سنة: ١٩٩٦م. والروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى، تحقيق: إحسان عباس، صـ٣٢، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت –، ط٢، سنة: ١٩٨٠م.

(٣) يراجع: قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٣٩.

(٤) ستانلى لين – بول (١٨٣٢ – ١٨٩٥). S– Lane، pool. عالم في الآثار المصرية. وقد عين سنة

حدودها، طبقة فاسدة مفسدة من الأغنياء، قسمت الأرض بينها ليزرعها العبيد والفلاحون البائسون اليائسون، ثم طبقة من سكان المدن لم يُبْق لها الظلم والعسف رطبًا ولا يابسًا"(١).

أما من الناحية الدينية فلم يسمح لهم القوط باعتناق ما يشاؤون من المذاهب الدينية، فقد كانوا يلزمونهم بعقيدة خاصة.... (٢).

أما من الناحية الاجتماعية فيقول البكري(٣): "وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلّا مرّة أو مرّتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم، ويزعمون أنّ الوسخ الّذي يعلوها من عرقهم تنعم أجسامهم وتصحّ أبدانهم"(٤).

فلم تُضف مملكة القوط لأهل إسبانيا شيئًا يُذكر من المظاهر الحضارية، ولم تجعل من إسبانيا بلدًا أوربيًا، بخلاف ما قامت به الحضارة الإسلامية فيها، فعندما طرد منها المسلمون، كانت تُشكل بلدًا إسلاميًا حضاريًا، له حضارة مميزة به عرفت بحضارة الأندلس، التي ميزت إسبانيا تاريخيًا وحضاريًا عن غيرها من البلاد الأوربية، فعندما "نتحدث عن تأسيس المملكة

١٨٧٧م حافظًا للنقود في المتحف البريطاني وأقام في هذا المنصب إلى أن توفى. من آثاره: فهرس النقود الشرقية في المتحف البريطاني، والخلافة في الشرق، وشمال أفريقيا وإسبانيا والأندلس واليمن، وأهل المغرب الإسباني، وصلاح الدين وسقوط مملكة القدس، وتاريخ مصر في العصر الوسيط. ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، (٥٦٤/٢)، دار المعارف القاهرة – مصر، ط٣، سنة: ١٩٦٤م.

(١) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ١٨ بتصرف.

(٢) يُراجع: قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٤٠.

(٣) هو: عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، أبو عبيد: (٠٠٠ – ٤٨٧ هـ = ٠٠٠ – ١٠٩٤م)، مؤرخ جغرافي، ثقة. علامة بالأدب، له معرفة بالنبات. نسبته إلى بكر بن وائل. كانت لسلفه إمارة في غربي جزيرة الأندلس. وقيل: كان أميرًا، وكان ملوك الأندلس يتهادون مصنفاته، ولد غربي إشبيلية، وانتقل إلى قرطبة، ثم صار إلى المرية، فاصطفاه صاحبها (محمد بن معن) لصحبته ووسع راتبه. وهذا ما حمل بعض المؤرخين على نعته بالوزير. ورجع إلى قرطبة بعد غزوة المرابطين، فتوفي بها عن سن عالية. له كتب جليلة، منها: المسالك والممالك، ومعجم ما استعجم، وأعلام النبوة، وشرح أمالي القالي، ينظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، صـ٢٧٧، مكتبة الخانجي، ط٢، سنة: الطبعة: الثانية، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م. والأعلام، الزركلي، (٩٨/٤).

(٤) المسالك والممالك، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، ٩١٣/٢، دار الغرب الإسلامي، سنة: ١٩٩٢م.

القوطية على معالم التراث الروماني المسيحي، والتي تعتبر استمرارًا للحياة الإقليمية الرومانية المسيحية الجرمانية، نجد أن الحياة القوطية لم تخلق شيئًا يمكن القول عنه بأنه إسباني خالص؛ وعندما اختفت مملكة القوط من الوجود عام ٧١١م لم يكن هناك ما يمكن أن يُطلق عليه أنه فرنسي أو إيطالي..، غير أن الأحوال تبدّلت عند اكتمال الألفية الأولى (عام ١٠٠٠م)؛ حيث نجد أن جوهر إسبانيا هو ما كانت عليه عام ١٦٠٠م، ويمكننا تمييز ملامحها بوضوح من خلال المقارنة بفرنسا وإيطاليا"[١].

ونتيجة لما ساد من أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية عمت شبه جزيرة أيبريا، فقد رحب سكانها بالعرب الفاتحين؛ لأنهم رأوا فيهم خلاصهم من تلك الأوضاع المهينة، سواء كانوا من النصارى أو اليهود، ذلك أن "التسامح الديني لم يدع للإسبانيين سببًا للشكوى؛ فقد تركهم العرب يعبدون ما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة، كما كان يفعل القوط باليهود، ... وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح، أن رضي المسيحيون بالنظام الجديد، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الإفرنج أو القوط؛ حتى إن القساوسة أنفسهم لم يكونوا شديدي التألم لحكم العرب، كما يدل على ذلك التاريخ المنسوب إلى (إيزيدور) الباجي[٢] الذي كُتِب بقرطبة سنة ٧٥٤م (١٣٧هـ) فإن هذا الراهب الصالح لم يتحرج من تدوين تلك الصلة غير الجائزة من زواج أرملة لذريق بابن موسى ابن نصير، وأسطع الأدلة على رضا المسيحيين عن حكامهم الجدد، أن ثورة دينية واحدة لم تحدث في خلال القرن الثامن"[٣].

والسؤال المطروح الآن هو: هل تعرضت شبه جزيرة أيبيريا للغزو العسكري من قبل المسلمين؟

في واقع الحال تم الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا، هذا الفتح بمعناه الديني واللغوي والثقافي، أما الفتح بمعنى الاحتلال العسكري الذي يُروج له الكثير من المستشرقين فلم يتم

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٢٠، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ضمن إصدارات المشروع القومي للترجمة، سنة: ٢٠٠٣م.

(٢) إيزيدور الباجي نسب إليه كتاب تأريخ عام ٧٥٤م. وهو أُسقف ومؤرخ مجهول.

(٣) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٤٠.

على مدار تاريخ الأندلس، إن إحصاء أولي لإعداد الجيوش التي دخلت الأندلس مع طارق بن زياد أو التي تلته مع موسى بن نصير تظهر بشكل واضح أنه لم يكن لمثل هذه القوات أن تحتل إسبانيا، بل تضافرت عدة أسباب مهدت ومكنت للفتح الإسلامي للأندلس، وهذا ما أثبته بعض المستشرقين حديثًا إذ يقول: "لقد انتشر الإسلام والحضارة العربية في شبه جزيرة أيبيريا مثلما انتشر في المشرق طبقًا لخطٍّ واحد في التطور، لم تكن هناك تحولات، وكان التوفيق الإسلامي بين التوجهات المختلفة محصلة عملية تصفية وتنقية للأفكار الخاصة بالوحدانية، على أمد طويل...، فلم يقم محمد ﷺ بغزو شبه الجزيرة العربية بقوات أجنبية لإقناع مواطنيها؛ بل أسهم في إحداث حرب نفسية (داخل كيان الإنسان). كان الشيء نفسه يحدث في إسبانيا حيث كانت الفكرة تمثل الشخص الحي... لم تقع عمليات عدوان عسكري ذات شأن كبير من تلك العمليات التي لا تقوم بها إلا دول كبرى قوية. لم يكونوا قادرين على مثل هذه العمليات. الأمر إذن هو عبارة عن أزمة ثورية"(١).

وهذه الحالة لا تمثلها الأندلس فحسب، بل معظم الفتوحات الإسلامية كانت تأخذ هذا المنحى، فالتوسع الإسلامي الذي امتد من الهند إلى المحيط الأطلسي إنما تم بواسطة العقيدة الإسلامية وقوة الفكرة، وحجية المنطق، لا بعمل السيف والاحتلال العسكري، فقد بات "واضحًا أن التوسع الإسلامي، والحضارة العربية في العالم تمت لا بواسطة العمل الحربي؛ بل من خلال الأفكار القوية"(٢).

وعن حالة إسبانيا وتحولها إلى الدين الإسلامي، يقول روجيه جارودي(٣): "ففي شبه الجزيرة

(١) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، د/ طارق شعبان، تقديم: د/ مصطفى الفقي، صـ١١٩ بتصرف، مركز نهوض للدراسات والنشر، بيروت، ط١، سنة: ٢٠١٩م.

(٢) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٩٤.

(٣) هو: روجيه جان شارل جارودي: فيلسوف فرنسي وأكاديمي، وُلد في فرنسا عام ١٩١٣م لأبٍ ملحد وأمٍّ كاثوليكية، لكنه ما إن أتم الرابعة عشرة اعتنق البروتستانتية. درس الآداب في جامعتَي آكس أون بروفانس وستراسبورج، وفي عام ١٩٣٧م عُيّن أستاذًا للفلسفة، حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة مرَّتَين؛ أولاهما من جامعة السوربون عام ١٩٥٣م، والأخرى من موسكو عام ١٩٥٤م، ظل يُدافع عن قناعاته

الإيبيرية لم يكن فتحًا عسكريًا بغزاة أجانب، ولم تكن حالة إسبانيا استثنائية، وهذا لأسباب تتعلق بجوهر الإسلام نفسه، فالوحي القرآني يُعرِّف الإسلام ليس كدين جديد، ناشئ عن نبوة الرسول محمد ﷺ، ولكن كالدين الأساسي والأول منذ أن نفخ الله في الإنسان من روحه"(١).

والسؤال الوجيه الذي ينبغي طرحه في واقع حال الأندلس، إذ تم تحول النصارى في إسبانيا إلى الإسلام بالقوة فلماذا لم يتحول اليهود أيضًا، وهم فئة أقل وأضعف؟ وبعبارة أخرى: "هذه الكتلة البشرية التي قهرها الإسلام والحضارة العربية؛ فإذا ما تمكّنت القوة فهي إجبار من تلقوا التعميد أن يتحولوا إلى الإسلام، فلماذا لم يأت عن هذا السبب الأثر نفسه بين الإسرائيليين الذين كانوا يعانون هم أيضًا من ضربات المقرعة نفسها التي كان يستخدمها المنتصر؟ هل كان إيمان المسيحيين ضعيفًا مقارنة باليهود؟"(٢).

فالذي يدحض فكرة الغزو العسكري لإسبانيا أننا لم نجد طائفة اليهود قد تحولت إلى الإسلام، بمثل ذلك التحول النصراني، فإذا لم كان الإجبار والقهر هو السبب في التحول فما هو؟

نستطيع أن نرجع التوسع الإسلامي وانتشار الإسلام في الأندلس إلى عدة أسباب ليس منها الغزو أو الاحتلال العسكري.

السبب الأول: حركات التجارة السابقة لعبور قوات طارق وهذا ما مهد للقوات بالدخول إلى إسبانيا، فالإسلام كفكرة "انتقل من خلال وسيلة الاتصال الأكثر سرعة آنذاك وهي

الماركسيَّة وله مؤلَّفاتٌ فيها، منها: المصادر الفرنسية للاشتراكية العلمية، وموت الله، وفكر هيجل، وفي أوائل الثمانينيَّات اعتنق الإسلام، وألَّف العديد من الكتب التي أبان فيها عن تصوُّر تقدمي حضاري جمالي للإسلام، وأكَّد على حوار الأديان ووَحْدتها ونَبْذ التعصُّب الأصولي، ومجابهة الهيمنة الأمريكية والصهيونية، وألَّف في هذه المرحلة العديد من الكتب، منها: الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة العالم والفكر، ووعود الإسلام، وأصول الأصوليات والتعصبات السلفية، والأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. توفي عام ٢٠١٢م. ينظر: موقع مؤسسة هنداوي، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٤/١٠/٣١م، الرابط// https://www.hindawi.org/contributors/٣٦٢٤٧٤٨٦/.

(١) الإسلام في الغرب – قرطبة عاصمة العالم والفكر، روجيه غارودي، ترجمة: د/ ذوقان قرقوط، صـ١١:١٢ باختصار، دار دمشق، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

(٢) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ١٠١.

التجارة، التي تقوم بدور الوصل بين الأمم المتباعدة عن بعضها البعض؛ وفي هذا المقام تشير دراسات بعض الباحثين بجلاء إلى الدور المهم الذي قام به التجار في نشر تعاليم محمد ﷺ، فهذا شيء تمت البرهنة على وجوده في الماضي، وأخذ يتأكد في الوقت الحاضر من خلال النظر إلى انتشار الإسلام في إفريقيا، وفي الأماكن القصيّة والنائية عن كافة مظاهر الثقافة الغربية"[١].

السبب الثاني: وجود المذهب الآريوسي"[٢]، وانتشاره في إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي، فمن أسباب انتشار الإسلام، "انتشار المذهب الأريسي في إسبانيا حتى القرن الحادي عشر، حيث كانت الآريوسية الديانة الرسمية للدولة وحتى عام ٥٨٩م، ومن ناحية أخرى نجد ملوك القوط أسسوا سياسة يُطلق عليها بالمصطلحات الحديثة "سياسة ليبرالية"[٣] أضف إلى ذلك أن اليهود تمكنوا من إقامة طقوسهم في سلام، وكانت نتائج هذه الأحداث ازدهار التوحيدية بعامة والآريوسية بخاصة، ومن هنا ندرك سر ما كتبه "جريجوريو دي تورز"[٤]، الذي توفي

(١) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ١٠٩ بتصرف.

(٢) الآريوسية: أصحاب أريوس، واعتقادهم أن المسيح مخلوق جسمه وروح، وأنه ليس بإله ولا ربّ، وأنه قد قُتل وصُلب. ينظر: الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، د.ت. (٢٨/٢)، مؤسسة الحلبي. وتخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري أبو البقاء الهاشمين، تحقيق: محمود عبد الرحمن قدح، (٦٠٤/٢)، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، سنة: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٣) مذهب سياسي يرى أنه من المستحسن أن تزَّاد إلى أبعد حد ممكن استقلالية السلطة التشريعية والسلطة القضائية بالنسبة إلى السلطة الإجرائية التنفيذية، وأن يعطى للمواطنين أكبر قد من الضمانات في مواجهة تعسف الحكم. ينظر: موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، ٧٢٥/٢، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، سنة: ٢٠٠١م.

(٤) هو: جريجورى دي تورز، وُلِد حوالي عام ٥٣٨ في عائلة شهيرة من أوفيرني –في قلب بلاد الغال القديمة –حيث تلقى تعليمًا كلاسيكيًا، كان مؤرخًا رومانيًا وأسقفًا لتورز خلال الفترة الميروفنجية، ويُعرف باسم "أبو التاريخ الفرنسي". كان أحد أساقفة مملكة الميروفنجيين، وصار وريثًا لتقليد سير القديسين والأسقفية في القرن الخامس، حيث خدم في الكرسي الأسقفي لمدينة سان مارتين بين عامي ٥٧٣: ٥٩٤م، وكان يعتبر الآريوسية الوجه البشع للبدعة في جميع أنحاء أوروبا. ينظر:
Gregorio de Tours y la hagiografía del siglo vi. Aproximaciones histórico–

عام ٥٩٤م، حيث يشير إلى أن إسبانيا، على زمانه، كان المسيحيون فيها قلة؛ أي: هؤلاء التابعين للكنيسة الرومانية"(١).

السبب الثالث: غموض وضبابية العقيدة النصرانية، مع بعض التعقيدات كثرة الحياتية، بينما وجد في المقابل أن الإسلام يهتم بالناحية الإنسانية أيّما اهتمام، ولم يكن ذلك بارزًا في العقيدة النصرانية، ولا عند الرومان ولا ملوك القوط الغربيين، "وبهذا يفهم أن التوحيد الإسلامي كان قادرًا على جذب الجماهير دون وجود اتفاق قسطنطيني..، فالإسلام ديانة تتعارض مع العقيدة الرومانية، كما أنها شديدة الإنسانية، لا يوجد اللوجوس أو الكلمة، ومحمد ﷺ هو ببساطة آخر الأنبياء وأعظمهم، وحدث معه مثل ما حدث مع موسى عليه السلام عندما تلقى الألواح، تجمع هذه الديانة بين الكمال الذي ينسبه الفلاسفة اليونانيون للإله وبين العناية الإلهية اليهودية..، يمكن للجماهير أن تؤمن ببساطة، وأنه طبقًا لعقيدة الإسلامية كان الملاك جبريل هو الذي أملى القرآن على محمد ﷺ، والأمر بالنسبة للفيلسوف أو المثقف أو العالم هو كاف؛ أي: يكفي أن يؤمن المرء بأن الوحي الإلهي هو الذي أملى القرآن، ولن يتعرض للتعذيب أو الطرد من الجنة على هذا الاعتقاد"(٢).

السبب الرابع: الحالة السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في جزيرة أيبيريا، مع كثرت الضرائب، وتعدد الانقلابات، مما دفع سكان شبه جزيرة أيبيريا للترحيب بالمسلمين وفتح مدنهم لهم، أملًا في تخفيف وطأة المعاناة الاقتصادية، فقد "كان فتح العرب للأندلس في جملته رخاء ونعمة على الأندلسيين المحكومين؛ لأنه أبطل ما كان يملكه كبار النبلاء ورجال الكنيسة من الضياع الواسعة، وحولها ملكيات صغيرة، ثم رفع عبء الضرائب عن

---

teológicas al libro Sobre las virtudes de san Martín, Marcelo aguirre durán, p:294, ANUARIO DE HISTORIA DE LA IGLESIA / VOL 29 / 2020

، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٤/١٠/٣١م.https://www.newadvent.org/cathen/07018b.htm وموقع

(١) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، صـ٢٢٦، و صـ٢٤٥ باختصار وتصرف.

(٢) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٢١٣:٢١٤ بتصرف واختصار.

تلك الطبقة الوسطى، واقتصر منها على الجزية على غير المسلمين، والخراج على المسلمين، ثم حث على تحرير العبيد والرفق بهم، وإصلاح أحوالهم فأصبحوا زراعًا مستقلين في خدمة ساداتهم المسلمين"(١).

السبب الخامس: حركة العمل والفكر والثقافة التي تبناها المسلمون انطلاقا من تعاليم الإسلام، يقول جوستاف لوبون(٢): "لم يكد العرب يتمون فتح إسبانيا، حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يعمروا خرب المدن، ويحيوا ميت الأرضين، ويقيموا فخم المباني، ويوطدوا الصلات التجارية الوثيقة بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة الآداب والعلوم، ويترجمون كتب اللاتين واليونان، وينشؤون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربا زمنًا طويلًا"(٣).

فلم يَكن ثَمة غزو بمعنى الاجتياح العسكري، وإنما كان فتحًا ثقافيًا وحضاريًا، "وإن ما يطلقون عليه اسم "غزو إسبانيا" لم يكن غزوًا عسكريًا، لقد كان عدد سكان إسبانيا في ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة، ولم يزد عدد الفرسان العرب في الأرض الإسبانية البتة على سبعين ألفًا، وإنما كان للتفوق الحضاري دورٌ حاسمٌ"(٤).

---

(١) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٤١.

(٢) هو: تشارلز ماري غوستاف لوبون (Charles Marie Gustave Le Bon)، (١٩٣١ – ١٨٤١م) طبيب وعالم نفس واجتماع فرنسي، وأحد أشهر المستشرقين والمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا الذين أولو اهتمامًا بالغًا لدراسة الحضارات الشرقية، كان متعصبًا للعنصرية، من كتبه: روح الاجتماع، حضارة العرب، وحضارات الهند، وحضارة العرب في الأندلس، والحضارة المصرية، توفي عن عمر يناهز التسعين عامًا في ١٣ أكتوبر/ أغسطس ١٩٣١، ينظر: الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال، صـ١٥٦٩، دار الشعب – القاهرة، سنة: ١٩٦٥م. غوستاف لوبون في الميزان، د/ شوقي أبو خليل، صـ١٣، دار الفكر المعاصر – بيروت، ط١، سنة: ١٩٩٠م. وموقع أبجد، تاريخ الزيارة: ٢٩/١٠/٢٠٢٤م، الرابط// https://www.abjjad.com/author.

وموقع// https://www.arageek.com/bio/gustave-le-bon

(٣) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، صـ٢٨٧، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة القاهرة – مصر سنة: ٢٠١٢م.

(٤) في سبيل حوار الحضارات، روجيه غارودي، تعريب عادل العوا، صـ٨٣، عويدات للنشر والطباعة، بيروت – لبنان، ط٤، سنة: ١٩٩٩م.

حقًا تم دخول قوات إسلامية إلى شبه جزيرة أيبيريا، ولكن بمعونة قوات إسبانية، وعلى سفن الإسبان، وكان فتحها بمساعدة أهل إسبانيا من النصارى واليهود، الذين شكلوا في مرحلة لاحقة حلقة وصل حضارية؛ إذ كان لهما دور رائد في الترجمة والنقل إلى العربية.

السبب السادس: الحركة السلمية للإسلام في الأندلس:

فالتوسع السلمي للإسلام في إسبانيا هو الطريق الأوحد لقبول انتشار الحضارة الإسلامية في الأندلس. وهذا ما أشار إليه أحد المستشرقين إذ يقول: "حاليًا أصبح من الممكن بالنسبة لنا أن نلاحظ التوسع السلمي للإسلام، ولا سبيل إلى دراسة الغزو العسكري، فمعطيات ذلك التاريخية ما زالت غامضة؛ بينما معطيات الوسائل الحديثة تسمح لنا بإدراك (وبشكل دقيق) العناصر التي واكبت توسع وامتداد الإسلام والعقبات التي واجهته، فالمناطق التي تم الاستحواذ عليها بالطرق السلمية كانت عن طريق تأثير المستويات الثقافية والمراكز التجارية"(١).

إن حضارة الأندلس لم تقم أبدًا على أيدي الفاتحين من العرب والبربر وحدهم، بل النصيب الأكبر منها يعود إلى أهل إسبانيا، الذين دخلوا في الإسلام وشكلوا فيها بعد ذلك أمة الأندلس الحضارية، بينما استأثر الفاتحون بالحكم فيها، ونازعهم أهل الأندلس في ذلك في بعض الفترات التاريخية مثل: "بنو مردنيش"(٢)الذين حكموا شرق الأندلس فترة من الزمن بين حكم المرابطين(٣)

(١) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، منقول هامش: صـ١١٠.

(٢) دولة بنو مردنيش، تنسب إلى محمد بن سعد بن مردنيش، تسلم قيادة شرق الأندلس أثناء تواجد الموحدين في غربها، ٥٤١هـ = ١١٤٦م، قيل إنه ينتمي إلى قبيلة جذام العربية في اليمن، والصحيح أن مردنيش محرف من مرتينيس، أي ابن مارتين، ويقال إن والد جده أحمد بن مردنيش هو أول من أسلم، ولذلك لا يحمل أصله اسمًا عربيًا، والواقع أن أصله من شبه الجزيرة، وقد يكون جده الأعلى دخل في ولاء بعض الجذاميين. شغلت دولته مساحة شاسعة شرق الأندلس من بلنسية شمالًا حتى المرية جنوبًا وتحيط بها مملكة أرجون من الشمال، ومملكة قشتالة من الشمال الغربي، ونصارى المرية في الجنوب. ينظر: الموحدون في الأندلس، داود عمر سلامة عبيدات، صـ٦٨:٦٨، دار الوضاح للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، سنة: ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م.

(٣) دولة المرابطين في المغرب والأندلس (٤٤٨ – ٥٤١هـ/١٠٥٦ – ١١٤٧م): وهم بربر أبناء صحراء من قبيلة لمتونة وهي فرع من صنهاجة، سموا بالمرابطين لأنهم تتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين في الرباط الذي أنشأه للدرس والعبادة في صحراء المغرب. وكانوا يعرفون (بالملثمين) أيضًا. تولى أبو بكر بن عمر

والموحدين[1]، الذين لم يكونوا كذلك من العرب.

هذا التوسع الإسلامي بلغ ذروته بعد قرنين من الزمان، "فمنذ القرن الثالث الهجري على وجه التقريب أصبح هناك، عدد من السكان المسلمين الإسبانيين يشكلون – بعد أن تكيفوا في موطنهم الجديد – نواة هامة في مجموع أهالي البلاد العام، الخاضعين للإسلام؛ هذه النواة كانت تتزايد باطراد سواء بالمؤمنين الجدد، أعني من سكان شبه الجزيرة، الذين أخذ دخولهم في دين الفاتحين يتزايد يدخلون بمحض إرادتهم، في أغلب الأحيان، أو من جراء تيار الهجرة المتدفق إلى شبه الجزيرة الذي سيستمر طويلاً، يجذب الراغبين فيها. وقد أخذ هؤلاء الأهالي من المسلمين الأندلسيين باستشعار أصالتهم الخاصة والواقعية سواء في مراميهم السياسية أو في حياتهم الفكرية على نحو أشد أيضًا. ولم يلبثوا، وهم المتعلقون بالإسلام وقواعده ومثله الديني الأعلى تعلقًا عنيدًا، أن تميزوا على نحو كاف، في أهم مظاهر حياتهم اليومية: في طريقة الملبس والأساليب المهنية والزراعية[2].

اللمتوني تنظيمهم والجهاد بهم، ففتح السوس والصامدة، وكان معه في الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي ارتفع شأنه، فاضطر أبو بكر أن يتنازل له عن السلطة. استنجد به المعتمد بن عباد حاكم أشبيليه في الأندلس ضد النصارى الإسبان، فزحف من فوره، والتقى بالنصارى بقيادة ملكهم الفونس السادس وهزمهم شر هزيمة في معركة الزلاقة الشهيرة عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م. استولى بعدها على كل الأندلس فوحدها وأزال ملوك الطوائف الضعفاء، فأصبحت الأندلس ضمن دولة المرابطين. ينظر: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧هـ/٩٦ – ٩٧م، أحمد معمور العسيري، صـ٢٥٢، مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض، ط١، سنة: ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

(١) دولة الموحدين (المغرب والأندلس) ٥١٤ – ٦٦٨ هـ/١١٢٠ – ١٢٦٩م، بدأت على يد محمد بن تومرت من قبيلة مصمودة، الذي دعا إلى إزالة دولة المرابطين بسبب ظلمهم وتعسفهم وتخليهم عن مبادئ الشريعة الإسلامية (حسب زعمه)، وكانت للموحدين فلسفة في الحكم قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الزهد في الدنيا. خلف المهدي عبد المؤمن بن علي الذي قضى على دولة المرابطين سنة ٥٤١ هـ/١١٤٧م، واستطاع أن يخضع بلاد المغرب كلها تحت نفوذه. وتُوفي في ٥٥٨ هـ. وأبرز من جاء بعده يعقوب بن يوسف الذي انتصر على النصارى في الأندلس انتصارًا ساحقًا في معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ/١١٩٤م، واستطاع إخضاع معظم بلاد الأندلس تحت راية الموحدين. ينظر: موجز التاريخ الإسلامي، أحمد معمور العسيري، صـ٢٥٢.

(٢) يُراجع: حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ١٦:١٨.

وإذا ما نظرنا إلى مدينة إشبيلية على سبيل المثال وهي مدينة متعمقة في شبه جزيرة نجد أن دخول المسلمين لها لم يكن عن طريق الحرب، فـ"فتح إشبيلية لم يأت بقوة السلاح بل عن طريق الاتفاقيات. وهذا ما مكّن من قيام علاقات حميمة سريعة بين الأقلية العربية الغالبة من جهة وحكام إسبانيا من جهة أخرى. وفي الواقع، وعبر تاريخ إشبيلية، نجد أن غالبية القادة في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانوا من سلالة سارة القوطية[١]، أما البنية الاقتصادية والاجتماعية لإشبيلية فقد كانت تقوم – كما كان الحال في الأندلس كلها وفي باقي العالم الإسلامي في ذلك الوقت – على القبلية العربية، كما كانت القوة السياسية بيد النخبة العربية. ولكن يجب القول إن جزءًا كبيرًا من السكان في القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر الميلاديين الذين كانوا تحت حكم الأمراء والخلفاء الأمويون كانوا إما من المولدين الأندلسيين، أو ممن اعتنقوا الإسلام واندمجوا في البنية القبلية العربية"[٢].

وهكذا كانت مقاليد الحكم والحضارة في الأندلس بيد العرب، الذين سعد جمهور أهل الأندلس من المسلمين وغير المسلمين في خلافتهم، ودانوا لهم بالحكم والإمارة ومقاليد شؤون الدولة، وتعايشوا جميعًا في ظل الحضارة الأندلسية حضارة التسامح والتعايش السلمي.

---

(١) هي: سارة بنت المنذر من بنات ملوك القوط، سليلة الملك غيطشه وإحدى قريبات آخر أساقفة المدينة قبل عام ٧١١م، سارت إلى الشام متظلمة من عمها أرطياس، فتزوجها بالشام عيسى بن مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز ثم سافر معها إلى الأندلس، ثم تزوجها عمير بن سعيد أحد فاتحي إشبيلية العرب والمنحدر من قبيلة لخمية. وإليها يُنسب "ابن القوطية" أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي القرطبي النحوي. ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، (٢٢٠/١٦)، مؤسسة الرسالة، ط٣، سنة: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م. ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، تحقيق: إحسان عباس، (٣٧٠/٤)، دار صادر – بيروت، سنة: ١٩٩٤م.

(٢) إشبيلية الإسلامية، تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، رفاييل بالنثيا، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، جـ١، صـ٢١٨، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، طـ٢، سنة: ١٩٩٩م.

المبحث الأول: مظاهر التسامح والتعايش في الأندلس

تعددت مظاهر التسامح والتعايش في الأندلس، حتى عمت كل الأنشطة والمسارات الحضارية، ويأتي في مقدمتها المعاملة الدينية والمجالات الثقافية والأنشطة الاقتصادية..، ويجلي هذا المبحث بعض هذه الصور فيما يلي:

المطلب الأول: التسامح الإسلامي مع أهل الأديان الأخرى في الأندلس.

أولًا: بالنسبة للنصارى:

لم يقم المسلمون بهدم أماكن عبادة النصارى واليهود بل سمحوا للطوائف المختلفة بالاحتفاظ بأماكن عبادتهم وإقامة شعائر دينهم، بكل حرية، فلقد "سمح المسلمون للنصراني الورع المتعصب لدينه بممارسة شعائره دون أدنى تدخل، بل أكثر من ذلك سمح للملحد أن يجهر بآرائه دون أن يخشى عاقبة ذلك، وسمحوا للأحبار والرهبان بأن يمارسوا أمور دينهم في سلام، وأن ما كتبه كتاب النصارى من قيام العرب باضطهاد النصارى، ووصفوهم بأفظع الأوصاف، كلها افتراءات ومبالغات لم تحدث، وما دفعهم لذلك إلا تعصبهم الأعمى ضد المسلمين"(١).

فلقد شكل الفتح الإسلامي للأندلس حالة من الحرية الدينية، لم يعشها سكان جزيرة أيبريا من قبل، حيث كان يقع على الآريسيين العديد من الاضطهادات من قبل إخوانهم في العقيدة، حتى كاد المذهب الآريوسي يتلاشى قبيل الفتح الإسلامي لإسبانيا.

وهكذا كانت حالة النصارى في أفضل حال، فـ"لم تكن حالتهم في ظل المسلمين شديدة الوطأة، إذا قورنت بما كانوا عليه من قبل، بالإضافة إلى أن العرب كانوا شديدي التسامح فلم يضيقوا الخناق – قط – على أحد ما في الناحية الدينية، ولم تكن الدولة تميل لدفع المسيحيين إلى اعتناق الإسلام حتى لا يخسر بيت المال الشيء الكثير(٢)، ثم إنها لا تلجأ

(١) History Of The Moorish Empire in Europe, Samuel Parsons Scott Volume I, P ٢٦٤, ١٩٠٤ Philadelphia,

(٢) لم يكن المسلمون يجبرون أحدًا على الدخول في الإسلام، وهذا ما دعت إليه آيات القرآن الكريم، وليس

إلى ذلك الأمر إلا اذا كانت شديدة التعصب وهو شيء نادر قليل الحدوث، وعليه فلم يجحد النصارى هذا الجميل، فكانوا راضين عنها لاعتدالها وتسامحها، وآثروا حكمها على حكم الفرنجة والقبائل الجرمانية، فانعدمت الثورات أو كادت طوال القرن الثامن الميلادي، ويبدو أن القسيسين كذلك لم يكونوا ناقمين على الحكومة – ولو في البداية على الأقل – رغم ما تدفعهم طبيعتهم إليه من نقمة عليها..

فقد كان الفتح العربي خيرًا على إسبانيا، حيث أحدث ثورة اجتماعية كبيرة، وقضى على جانب كبير من المساوئ التي كانت تعيشها البلاد منذ عدة قرون.."[١].

هذه الحرية للنصارى تخطت أمور العبادة الدينية، حتى شملت جانب التقاضي فكان النصارى يتحاكمون فيما بينهم بقوانين القوط الغربيين – إذا رغبوا في ذلك – وفي هذا يقول المستشرق الإسباني "فرانشسكو خافيير سيمونت"[٢] **J,Simonet ,F** في تلك النقطة على وجه التحديد: "لقد احتفظ النصارى الإسبان في ظل الحكم الإسلامي في الأندلس بنوع من الاستقلال الخاص بهم، حيث سمح لهم المسلمون بالاحتفاظ بأحوالهم القديمة دون تغيير، وبخاصة في النواحي التشريعية، فقد احتفظوا بنظمهم الكهنوتية وقوانينهم الكنسية، بل أصبحت تحكمهم القوانين القوطية القديمة في مسائل التقاضي بينهم، وكانت لهم حكومة محلية شبه مستقلة لإدارة شؤنهم"[٣].

خوفًا من نقصان الجزية التي كانت تؤدى إلى بيت المال، فالمسلم يؤدى عن طيب خاطر جزءًا أكبر من الجزية يتمثل في فريضة الزكاة.

(١) المسلمون في الأندلس، رينهرت دوزي، ترجمة: أحسن حبشي، جـ١، صـ٤٨، بتصرف واختصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٤م.

(٢) هو: الأب فرانشيسكو سيد مونيت (١٨٢٩ – ١٨٩٧) Y. Simonet، Fr. ولد في مالقة وتخرج من جامعة غرناطة، وسمي أستاذاً للعربية فيها، وتوفي في مدريد. آثاره: الأساطير التاريخية العربية، والأدب العربي، وتاريخ المستعربين في إسبانيا، ونشر وصف مملكة غرناطة على أيام ملوك بني الأحمر. وله في كبرى المجلات الإسبانية دراسات نفيسة عن أعمال مجمع طليطلة وعن العرب، من أشهرها مقارنة بين كتاب أصول الكلمات لإيزيدور الأشبيلي وبين معجم ما استعجم للبكري. ينظر: المستشرقون، العقيقي، (٥٨٤/٢).

(٣) Historia de Los Mozarabes de Espana, Francisco J Simonet: Volume I, P

فقد احتفظ أهل إسبانيا "بشرائعهم وقضاتهم، وعيّن لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف، وأصبح سكان المدن لا يكلفون إلا الجزية والخراج — إن كانت لهم أرض تزرع —، وكانت الجزية متدرجة على حسب منزلة المطالبين بها..، وقد قسمت اثني عشر قسطًا، يجبى قسط في كل شهر للتخفيف عن الرعية، وقُصِرَت الجزية على المخالفين في الدين من النصارى واليهود، أما ضريبة الأراضي التي كانت تتفاوت على حسب قدرة إنتاج الأرض، فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعًا"(١).

وهكذا بلغت قمة التعايش والتسامح في ظل دولة الأندلس، التي تعاملت بمبدأ المساوة بين الرعية، فيما يتعلق بأمور التقاضي، حيث سُمح لكل طائفة بأن تحتكم إلى شريعتها الخاصة، وفيما يتعلق بالمشاركة في القيام بأعباء الدولة الاقتصادية، فقد فرضت الضرائب بكل عدل ومساواة، ولم يُكلف أهل الذمة (اليهود والنصارى) فوق طاقتهم في الجزية، التي كانوا يؤدونها نظير حماية المسلمين لهم.

ومن جانب أخر يُرجع "ليفي بروفنسال"(٢) – المرجع الأول في الغرب لتاريخ الأندلس – هذا التعايش لضرورة العلاقات القائمة فيما بين المسلمين وغيرهم فيقول: "ما من مكان كانت العلاقات الدائمة ضرورية فيه بين الإسلام والمسيحية، أكثر منها في إسبانيا العربية،

,.١٠٦ ١٨٧٩ Madrid,

(١) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٣٩.

(٢) هو: ليفي – بروفنسال (١٨٩٤ – ١٩٥٦). Lèvi–Provengal، E ولد في الجزائر، ونال الليسانس من كلية الآداب فيها (١٩١٣) واشترك في الحرب (١٩١٤) ثم نقل إلى مصر ومنها إلى فرنسا فالمغرب ضابطًا في الشئون الإسلامية، وفي سنة ١٩١٩ انتدبه المشير ليوتي للعمل في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط وعين أستاذًا فيه (١٩٢٠) ثم مديرًا له (١٩٢٦). وفي سنة ١٩٢٨ انتدبته كلية الآداب بالجزائر أستاذًا لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية فقسم وقته بين الرباط والجزائر، ثم بينهما وبين التدريس في معهد الدراسات الإسلامية في السوربون بباريس حيث كان يدرس تاريخ العرب وكتاباتهم. وفي سنة ١٩٣٨ دعته جامعة القاهرة أستاذًا زائرًا وعينته في اللجنة المكلفة بتحقيق كتاب الذخيرة لابن بسام، ولم يقتصر جهده على التدريس فقد كان حتى سنة ١٩٣٩ مدير المطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية، وأنشأ مجلة أرابيكا (١٩٥٤) Arabica للدراسات العربية. ينظر: المستشرقون، العقيقي، (١/٢٧٥:٢٧٦).

فإن معظم سكانها قد احتفظوا بالديانة القديمة؛ وفيما بعد، حتى عقب اعتناق أعداد غفيرة من الرعايا النصارى أهل الذمة للإسلام، للاستفادة من نظام مالي أفضل، بقيت نسبة ضخمة من الرعايا المسيحيين تشكل في المدن الأندلسية وحدات مزدهرة، لها أديرتها وكنائسها ورئيسها المسؤول وجابيها الخاص، وقاضيها الذي يطبق في محكمته، تحت إشراف الإدارة الأموية، القانون القوطي القديم، أما الاضطهادات التي حدثت فقد كان يسببها دومًا مسيحيون متهوسون يرفضون أن يتراجعوا عن القدح في معتقد سادة البلاد"[١].

قد تدفع ضرورة التعامل إلى التعايش، ولكن لا تدفع إلى التسامح أو عدم الاضطهاد كما كان حال النصارى بشهادة "ليفي بروفنسال"، كما يجب التحفظ على تعليله دخول النصارى في الإسلام للاستفادة بنظام مالي أفضل، فلم يكن ثمة امتيازات مالية أو تجارية يتمتع بها المسلمون في الأندلس دون غيرهم، إلا إذا كان يشير إلى عدم دفع الجزية، التي تمثل مبلغًا لا يذكر بجانب الزكاة، ولم تكن عبئًا في يوم من الأيام على أهل الكتاب..، كما أنه يتناقض مع نفسه في ذلك إذ يشير إلى أن نسبة ضخمة من الرعايا المسيحيين تشكل في المدن الأندلسية وحدات مزدهرة!!

هذا التعايش والتسامح الذي تَنَعم به أهل إسبانيا من النصارى واليهود كان حال كل أهل الكتاب في ظل الحكم الإسلامي، فأهل النصارى في الأندلس "بصفتهم ذميين تمتعوا حتى القرن الحادي عشر على أقل تقدير بحياة آمنة مستقرة، شأنهم في ذلك شأن كل أهل الكتاب في الأراضي التي تقع تحت الحكم السياسي الإسلامي؛ حيث كان لهم ذمة تعترف بكيانهم، وتضمن لهم الحياة في الأراضي الإسلامية يأمنون فيها على أنفسهم وممتلكاتهم مقابل دفع الجزية واعترافهم بالخضوع للحكم الإسلامي، وفي ظل هذا العهد كان للمستعربين[٢] رئيسهم الخاص وقاضيهم الخاص (قاضي النصارى) يطبق عليهم شريعتهم، واحتفظوا بدينهم ومعابدهم"[٣].

---

(١) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٧٩.

(٢) مصطلح "مستعرب" يُطلق في كتابات المستشرقين المتعلقة بالأندلس على المسيحيين، الذين استوعبوا الثقافة العربية، لكنه لم يُطلق أبدًا على اليهود.

(٣) من العرب إلى الموريسكيين (٧١١ – ١٦١٦م): حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة

ثانيًا: بالنسبة لليهود:

إضافة للتسامح الإسلامي مع النصارى، فلقد حظيت الأقلية – اليهودية – في إسبانيا بمكانة خاصة في دولة الأندلس، نظرًا للتقدم العلمي والمهارة التجارية.. " بل أكثر من هذا، فعلى مدار قرن من الحكم الأموي تطور الوضع الاجتماعي والحياة اليومية لليهود بصورة واضحة، فالجماعة التي كانت تعيش في الفقر المدقع والعبودية قبل الحكم الإسلامي، أصبحت ترتقي بسرعة في السلم الاجتماعي، إلى درجة أن يهوديًا سيصير يومًا الوزير الأكبر لخليفة أموي"(١).

وهذا الوضع العام لليهود كان في كل حكومات الأندلس، وظهر بصورة أكبر في الدولة الأموية، خاصة في عهد "عبد الرحمن الثالث"(٢) فمما تميزت به "شخصية عبد الرحمن الثالث (الناصر) أنه كان "متحررًا"، فاستطاع أن يقيم توازنًا في الأمة سمح بازدهار ثقافي كبير خلال القرون التالية، واستطاع أن يصيغ مجتمعًا قلما نصادفه في التاريخ العالمي، فلم يتعايش فقط تحت ولايته رعايا ينتمون إلى ثلاث ديانات مختلفة – كما أشار إلى ذلك كثير

الدولي، ٢٦ – ٢٨ سبتمبر ٢٠١١م، مجموعة من المستشرقين، ترجمة: د/ سري عبد اللطيف، د/ جمال عبد الرحمن، صـ٢٢٠، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ط الكويت، سنة: ٢٠١٤م.

(١) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، صـ٦٠ بتصرف، دار توبقال للنشر بالمغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة: ٢٠٠٦م.

(٢) هو: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن الداخل عبد الرحمن سلطان الأندلس، المدعو: أمير المؤمنين الناصر لدين الله، ولم يزل عبد الرحمن يغزو حتى أقام العوج ، ومهد البلاد ، ووضع العدل ، وكثر الأمن، وصارت الأندلس أقوى ما كانت وأحسنها حالا ، وصفا وجهه للروم ، وشن الغارات على العدو ، وغزا بنفسه بلاد الروم اثنتي عشرة غزوة ، ودوخهم ، ووضع عليهم الخراج ، ودانت له ملوكها ، فكان فيما شرط عليهم اثنا عشر ألف رجل يصنعون في بناء الزهراء التي أقامها لسكناه على فرسخ من قرطبة، وابتدأ ببناء مدينة الزهراء في أول سنة خمس وعشرين وثلاث مائة، فكان يقسم دخل مملكته أثلاثًا: فثلث يرصده للجند، وثلث يدخره في بيت المال، وثلث ينفقه في الزهراء. توفي الناصر في رمضان سنة خمسين وثلاث مائة. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٨/٢٦٦:٢٦٩).

من الكتَّاب – بل كانوا مجتمعًا متمازجًا ومتداخلًا ينتسب إلى حضارتين مختلفتين"[١].

هذا التمازج والتعايش الذي لم يفرق بين المسلمين وغيرهم في تولية المناصب، أو في المكانة الأدبية والثقافية، حتى برز الكثير من الأدباء اليهود وتبوأوا العديد من المناصب المهمة في الدولة الإسلامية في الأندلس، حقًا "كان للمجتمع اليهودي في الأندلس شخصيته المتميزة بين المجتمعات اليهودية القروسطية[٢] وذلك من عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ – ٣٥٠هـ / ٩١٢ – ٩٦١م) إلى زمن الموحدين بعد ٥٣٥هـ / (١١٤٠م). ولم ينشأ في أي من المجتمعات اليهودية الأخرى مثل هذا العدد الكبير من اليهود ممن أحرزوا مناصب مرموقة بل مراكز نفوذ في العالم غير اليهودي، كما لم تنتج أي من تلك المجتمعات مثل هذه الثقافة الأدبية، التي ينعكس فيها الأثر العميق للحياة الفكرية التي أسهموا فيها مع آخرين من غير اليهود"[٣].

هكذا دام حال اليهود في دولة الأندلس حتى قبيل سقوطها، ولا يمكن مقارنة وضع اليهود في الأندلس بوضعهم في أي من البلاد الأوربية خلال نفس الفترة التاريخية، أو فيما بعدها، إذ عانى اليهود كأقلية دينية في المجتمعات الأوربية، وظلت تلك المعاناة حتى العصر الحديث... أما في دولة الإسلام بصفة عامة وفي مدينة الأندلس فـ"اليهود حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ممن كانوا في كنف الإسلام، كانوا أفضل حالاً من أولئك الذين عاشوا تحت حكم النصارى. ولا بد أن إمكانية العيش تحت حكم الإسلام بدت فكرةً

(١) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٣٥٠.

(٢) مع التحفظ على كلمة "قروسطية" التي لا يصح نسبتها للعالم الإسلامي في أي من حقبه التاريخية، فالقرون الوسطى فترة تاريخية وصفت بها أوربا في حقبة تاريخية ساد فيها التخلف والجهل، وأُطلق عليها قرون الظلام، في الوقت الذي كان العالم الإسلامي فيه في أرقى سلم الحضارة والعلم والمدنية. يُراجع: لماذا لا توجد عصور وسطى إسلامية، توماس باور، ترجمة: د/ عبد السلام حيدر، صـ١٣ وما بعدها، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، سنة: ٢٠٢٠م.

(٣) اليهود في إسبانيا المسلمة، ريموند شانيد لين، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، جـ١، صـ٣٠١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، طـ٢، سنة: ١٩٩٩م.

مرغوبًا فيها من اليهود الإسبان في المملكة الفيز قوطية وذلك قبل قرن من الفتح الإسلامي لإسبانيا، لدرجة أنهم لو علموا بتقدم الجيوش المسلمة فلن يكون منهم إلا أن يرحبوا بتلك الجيوش"(١).

وهكذا تعايش المسلمون في كل مدن الأندلس مع الأقليات الدينية بكل تسامح وانسجام، وإذا كان سكان إسبانيا سرعان ما دخلوا في الإسلام عن رغبة واقتناع، ودليل ذلك بقاء الأقليات الدينية في مدن الأندلس – إلا أن المسلمين تعايشوا مع هذه الأقليات التي بقيت على معتقداتها السابقة بكل عدل وإنصاف، "فضمن إطار حضاري عام يمكن وصفه بالعربي – الأندلسي، كان يوجد هناك لزمن طويل – أقليتان إحداهما مسيحية والأخرى يهودية. وهذا الوضع – مثله مثل العملية المنسجمة لدخول الناس في الإسلام، وترسيخ جماعة الأغلبية – يُعد دلالة على روح التسامح التي تميز بها تاريخ الأندلس"(٢).

وهكذا جسدت الأندلس نموذجًا فريدًا للتعايش مع أهل الأديان الأخرى، حيث عاش المسلمون واليهود والنصارى جنبًا إلى جنب في ظل الحكم إسلامي.

(١) اليهود في إسبانيا المسلمة، ريموند شانيد لين، جـ١، صـ٣٠٢.

(٢) إشبيلية الإسلامية، تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي، رفاييل بالنثيا، جـ١، صـ٢٢٠.

المطلب الثاني: الحياة الثقافية والعلمية المزدهرة ومشاركة غير المسلمين فيها.

ازدهرت الحياة الثقافية والعلمية في الأندلس في كافة المجالات، حتى وُجد في تلك الحضارة ذاك الأدب الذي يُعبر فيه عن الحب والغرام... هذا التفوق والازدهار كان أثرًا من آثار الثقافة العربية الإسلامية، وأسهمت فيه كل طوائف المجتمع عرب وبربر ومولدين، كذا أسهم فيه غير المسلمين بعد اندماجهم في الثقافة العربية الإسلامية.

وما كان هذا الازدهار العلمي والثقافي ليكون إلا في رحاب التسامح والتعايش السلمي، فقد "جاء المسلمون بقوى تثير الإعجاب وهي الوحدة السياسية والوازع الديني، وقد توسعوا بمرونة وهم يحملون على ظهورهم ميراثًا دينيًا وسياسيًا وكذلك أصداء أفضل الثقافات الخاصة بالعالم القديم، وسرعان ما أعادوا الحياة إلى تلك الأصداء، كما امتلك الأدب العربي – منذ القرن السابع – ثروة هائلة من الأفكار ووسائل التعبير، التي لا يمكن أن نجد لها مثيلًا في رومانيا"(١).

وكان لزامًا على من يريد السبق في المجال العلمي والثقافي والأدبي، أن يتعلم اللغة العربية ويكتب بها، إذ هي لغة العلم والثقافة، وهذا ما سجله أحد المتعصبين للدين النصراني واللغة اللاتينية، فينقل "ليفي" عن أحد أبطال المقاومة – كما يصفه – ضد الإسلام شهادته على بني ملته، بتسابقهم المنقطع النظير إلى العلوم والمعارف العربية، إذ يقول فيه: "إن أبناء طائفتي يحبون قراءة الأشعار وتراث الخيال العربية؛ وهم لا يدرسون كتابات رجال ليدحضوها وإنما يدرسونها ليكتسبوا نطقًا عربيًا سليمًا ورفيعًا ... جميع الشباب المسيحيين الذين يعتبرون لموهبتهم لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها؛ إنهم يقرأون ويدرسون الكتب العربية بنشاط منقطع النظير؛ ويشكلون منها مكتبات هائلة بأثمان باهظة، ويعلنون عن هذه الآداب في كل مكان إنها مدهشة فيا للألم! لقد نسي المسيحيون كل شيء حتى لغتهم الدينية إنك تكاد لا تعثر بيننا، إلا يجهد على واحد بالألف يعرف كما يجب، كتابة تحرير إلى صديق باللغة اللاتينية، أما إذا كان الغرض الكتابة في العربية فإنك تجد جمهرة من

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٥٩ باختصار.

الأشخاص يعبرون على وجه موافق وبلياقة فائقة في هذه اللغة"[١].

كذلك كان حال اليهود في الإقدام على دراسة العربية، وممارسة علومهم بها، إذ هي لغة الحضارة، فقد "كان الإسبان العبرانيون في منتصف القرن الثالث عشر، وخلال القرن الثاني عشر، كان "ابن ميمون"[٢] يكتب بالعربية كلغة من لغات الحضارات، إذ كان الشرق المحور الذي يدول حوله... إن اللغة العربية التي كان يستخدمها الإسباني العبري هي ابنة حضارة تسيطر عليه، كما أنها بلغت شأوًا عظيمًا بدونه"[٣].

هذا ويمكن القول بأن عملية تعريب إسبانيا قد تمت بشكل ملحوظ وسريع في حياة الأمم، إذ لم يستغرق أكثر من قرن من الزمان – بينما وُجد في العصر الحديث أن عملية التحويل اللغوي تستغرق أكثر من ذلك بكثير، ولا تتم بمثل هذه الوتيرة، إذ يتنازع الإرث الحضاري اللغوي مع تلك الحضارة واللغة الجديدة.

أما في إسبانيا فقد تم ذلك بشكل عام وملحوظ، بل أسهم في ذلك التحول أهل إسبانيا بالنصيب الأوفر، فكانوا هم الأساس الذي يرتكز عليه في عملية التحول "لقد تمت عملية تعريب المجتمع بصورة حثيثة؛ لأنها كانت تمثل قيمةً فكرية، دون أدنى مقارنة لذلك مع ما كان موجودًا منذ بداية الإمبراطورية الرومانية في الغرب، ولقد بذل المثقف الإسباني مجهودًا إراديًّا من أجل أن يتأقلم مع ذلك، بينما جنحت المفاهيم الدينية بقوة نحو الإسلام، لتتجاوز مرحلة الآريوسية، لقد تشابك الإسلام إلى حد بعيد مع الحضارة العربية مبتكرًا في ذلك صياغة اختلفت عن الآخر، ولم يستطع الغرب أن يكبح توسع الإسلام، لذا لم يكن لديه من

(١) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٨٠.

(٢) هو: مُوسى بن مَيْمون بن يوسف بن إسحاق، أبو عمران القرطبي: (٥٢٩ – ٦٠١هـ = ١١٣٥ – ١٢٠٤م)، طبيب فيلسوف يهودي. ولد وتعلم في قرطبة، وتنقل مع أبيه في مدن الأندلس، وهو أوحد زمانه في صناعة الطب، متفنن في العلوم، وله معرفة جيدة بالفلسفة. طب السلطان صلاح الدين، وقيل إنه أسلم بالمغرب، وحفظ القرآن، فلما أن قدم مصر ارتد. وله تصانيف في الطب، وكتاب كبير في دين اليهود. ينظر: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، (٢٦٢/١٣)، دار الغرب الإسلامي، ط١، سنة: ٢٠٠٣م. الأعلام للزركلي، (٣٢٩/٧).

(٣) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، صـ٥٤٧.

خيار إلا أن يذعن سواء أكان ذلك عاجلًا أم آجلًا"(١).

– ذلك وكما سبق سلفًا أن المسلمين لم يقوموا بغزو إسبانيا، بل تم الترحيب بهم لأكثر من علة، من بينها تخليصهم من ذلك الاضطهاد القوطي المادي بكثرة الضرائب... وبعد دخول المسلمين الأندلس، وجد أهل إسبانيا في تلك الحضارة ما يستطيعون من خلاله إبراز أنفسهم في كافة المجالات، حيث "انتج المسلمون الإسبان أثناء القرن التاسع دراسات عن القانون وشروحات في فقه اللغة، وظهرت شخصيات أدبية مهمة مثل: "ابن عبد ربه"(٢) بالقرن العاشر، وهناك أدلة تشير إلى تلك الحيوية التي استطاع العرب من خلالها أن يقوموا بعملية تعريب إسبانيا خلال القرن الثامن، حيث تمكن الغزاة أن يسلبوا أنظار أصحاب البلاد الأصليين المهزومين من خلال تميُّز أعمالهم الأدبية، وكذا من خلال تفوق ثقافتهم، لقد تمت عملية تحويل المجتمع إلى مجتمع شرقي بطريقة تدريجية، وتَطَلَّب ذلك بالطبع زمنًا كي تتجلى مظاهره الأولى.. كان على العرب أن يقوموا بتعليم الإسبان اللغة العربية، وأن يندمجوا معهم قبل البدء في خلق بيئة مواتية يستطيعون خلالها تأصيل مبادئهم الأساسية، ومع مرور السنين بلغت الثقافة العربية الأندلسية أوج ازدهارها خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر"(٣).

وفي سياق الحديث عن الثقافة والأدب نذكر حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد(٤) ورعايته

---

(١) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٣٥٠ بتصرف.

(٢) هو: أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حُدَير بن سالم، أبو عمر: (٢٤٦ – ٣٢٨هـ = ٨٦٠ – ٩٤٠م)، الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة. وكان ابن عبد ربه شاعرًا مذكورًا فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها، له شعر كثير. منه ما سماه (الممحَّصات) وهي قصائد ومقاطيع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب، وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. ينظر: تاريخ علماء الأندلس، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو الوليد، المعروف بابن الفرضي، عنى بنشره وصححه، ووقف على طبعه: السيد عزت العطار الحسيني، (٥٠/١)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، سنة: ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م. والأعلام للزركلي، (٢٠٧/١).

(٣) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٣٤٤:٣٤٥ باختصار.

(٤) هو: المعتمد بن عباد محمد ابن المعتضد بالله ابن الظافر بالله، صاحب الأندلس، وقاضي إشبيلية، ثم ملكها، محمد بن إسماعيل بن قريش اللخمي. قيل: هو من ذرية النعمان بن المنذر صاحب الحيرة. حكم

وتشجيعه للآداب والفنون، فكان "راعياً مشجعاً للفنون، وكان المعتمد بدوره مؤلفًا بارعًا، خاصة لشعر الحب والخمريات[١]، أما الشهرة الباقية لقصائد الحب خاصة لابن زيدون (٣٩٤ – ٤٦٣ هـ / ١٠٠٣ – ١٠٧٠م) الذي عاش في تلك الفترة، فهي بسبب حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد"[٢].

هذه الحالة الثقافية للأندلس شارك فيها كل أهل الأندلس من المسلمين واليهود والنصارى، فلقد "أسهم اليهود في شبه جزيرة إيبيريا في بناء عظمة الدولة التي أحبوها كوطن لهم، فلما أسهموا في البناء حصلوا على مكانة عالمية... إن الاهتمام بالعلوم والشعر قد استولى على اليهود، وتحولت إسبانيا إلى مركز للحضارة وللنشاط الروحي: حديقة عاطرة من الشعر ومركز للبحث الدقيق وللفكر الحر، وكان اليهود الأندلسيون المثقفون يتحدثون لغة البلاد ويكتبون بها بطلاقة مثل العرب"[٣].

ومع هذا الاحتفاء باللغة العربية كلغة للثقافة والفكر، إلا أنه في ظل سماحة حضارة الأندلس، استطاع اليهود أن يُنتجوا أنواعًا من الأدب باللغة العبرية، بعد أن كانت قد اندثرت في إسبانيا قبل قدوم المسلمين إلى إليها، إلا أنه بعد قدوم المسلمين إلى "الأندلس أُعيد استخدام العبرية كلغة للأدب الدنيوي بعد حوالي ثمانية قرون من نهايتها كلغة منطوقة. وكان الرائد في هذا المجال هو الشاعر والفيلسوف اليهودي الأفلاطوني المحدث سليمان بن

المعتمد على المدينتين قرطبة وإشبيلية، هلك المعتضد سنة أربع وستين وأربع مائة، وخلفه المعتمد، فكان فارسًا شجاعًا، عالمًا أديبًا، ذكيًا شاعرًا، محسنًا جوادًا ممدحًا، كبير الشأن، خيرا من أبيه. كان مولده: في سنة إحدى وثلاثين وأربع مائة، ومات في شوال، سنة ثمان وثمانين وأربع مائة. يُنظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٥٨/١٩.

(١) الخمريات: هي الأشعار التي قيلت في مدح الخمر، وصفتها، انتشرت في العصر العباسي، في شعر أبي نواس وغيره، واتسع شعرها حتى أصبح فنًا مستقلًا تفرد له القصائد والمقطوعات. ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة؛ كامل المهندس، صـ١٦٣، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط٢، سنة: ١٩٨٤م.

(٢) لماذا لا توجد عصور وسطى إسلامية، توماس باور، ترجمة: د/ عبد السلام حيدر، صـ١٨٨:١٨٩ باختصار وتصرف.

(٣) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٢٧٦:٢٧٧.

جبيرول (ت. ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م)"[١].

وظلت أندلس الطوائف في القرن الحادي عشر أرضًا ثقافية خصبة: فقد استطاع صامويل ابن النغريلة الوزير اليهودي في البلاط الغرناطي- لأول مرة أن ينظم الشعر باللغة العبرية، وكتاب (طوق الحمامة) لابن حزم يبين كيف أن شعر الحب (الغزل) قد بلغ أوجه آنذاك، أما النورمانديون[٢] الذين استولوا على "بربشتر"[٣] سنة (١٠٦٤م) أخذوا معهم مغنيات الأعيان العرب، فقد نقلوا هذه الحساسية الشعرية إلى العالم اللاتيني"[٤].

وهكذا قدمت الأندلس مثالًا فريدًا للتعايش الثقافي والعلمي بين مختلف الديانات والثقافات؛ حيث شهدت ازدهارًا علميًا وثقافيًا غير مسبوق، وأسهم المسلمون واليهود والمسيحيون معًا في تطوير العلوم والفنون والأدب.

(١) لماذا لا توجد عصور وسطى إسلامية، توماس باور، ترجمة: د/ عبد السلام حيدر، صـ١٨٨:١٨٩ باختصار.

(٢) النورمان أو النُّرمان أو النرمنديون أو النورمانديون وسمَّاهم العرب قديمًا الأردمانيون أو المجوس (من النوردية القديمة: Norðmanðr "نورذمانذر" أيْ: رجال الشمال. كانوا مجموعة عرقية نشأت في نرمندية، المنطقة الشمالية من فرنسا، ناتجة من الاتصال بين الفرنجة الأصليين، والغال الرومان، والمستوطنين الشماليين الفايكنج. استقروا في ولاية نورماندیا "Normandia" في غرب فرنسا سنة ٣٠٠ هـ/٩١٢م، وذلك نتيجة إقطاع ملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج Le-Simple زعيم النورماندية رولون Rollon هذه المقاطعة التي عرفت باسم نورماندیا وقد مكنهم في هذه المقاطعة من شن هجمات برية على الثغر الأعلى للأندلس. ينظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د/ أحمد مختار العبادي، صـ٢٧٥، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، سنة: ١٩٦٨م. وموقع ويكيبيديا، الرابط// https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%88%D8%B1%D9%85%D8%A7%D9%86

(٣) بَرْبُشْتَرُ: بضم الباء الثانية، وسكون الشين المعجمة، وفتح التاء المثناة من فوق: مدينة عظيمة في شرقي الأندلس من أعمال بربطانية، وقد صارت للروم في صدر سنة ٤٥٢هـ. ينظر: معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (٣٧٠/١)، دار صادر، بيروت، ط١، سنة: ١٩٩٥م.

(٤) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، صـ٤٠.

المطلب الثالث: تمثيل الأقليات في مناصب الدولة وإداراتها

وتتجلى قمة التعايش والتسامح الإسلامي في الأندلس، أن عددًا من أصحاب الديانات الأخرى قد حاز مناصب مرموقة في الدولة الإسلامية، فضلًا عن شهرتهم في مجالات العلم المختلفة.. حيث اشتهر عدد كبير من الشخصيات اليهودية في دولة الأندلس، و"كانت توجد دومًا، إبان العصور الوسطى طائفة من السكان اليهود، عددها لا بأس به تقطن مدن إسبانيا الإسلامية ومدنها المسيحية على حد سواء، وكانت أحوالها مزدهرة وبخاصة في أرض الإسلام، على شيء كبير من التنظيم، تتوارث حب الدرس وكان العلماء الذين أكسبوها هذه الشهرة، سيشكلون جمهرة غفيرة: فهم، في الغالب، أصحاب التلمود، وأطباء، وتراجمة عرفوا خاصة بالقيام بدور الترجمة بسبب إتقانهم للعبرية والعربية والقشتالية وأحيانًا للاتينية واليونانية، وقد استمر عدد كبير من بين هؤلاء العلماء اليهود على شهرته مثل هاسداي بن شابروت الذي صار سفيرًا ووزيرًا للخليفة عبد الرحمن الثالث وسليمان بن غابيرول[1]، الذي جدد الشعر العبراني وألف في العربية بحثًا فلسفيًا بعنوان (ينبوع الحياة)"[2].

فالذي مكن لهؤلاء اليهود في دولة الأندلس نبوغهم في المجالات العلمية المتنوعة من الطب والترجمة وغيرهما، وإذا قارنا أحوال اليهود في دولة الأندلس بأحوالهم في بلاد أوربا في نفس الفترة التاريخية، لظهر البون الشاسع في المكانة والمعاملة، حيث "كان اليهود في أُوربا عرضة بدرجة كبيرة للتعسف، أما الاضطهادات في العالم الإسلامي فكانت ظواهر

(١) هو: أبو أيوب، سليمان بن يحيي بن جبيرول (١٠٥٦-١٠٢١) Solomon Ibn Gabirol، شاعر وفيلسوف عربي يهودي كتب بعض الأعمال بالعبرية. عاش في إسبانيا الإسلامية (الأندلس)، وُلد في ملقا، وكان قبيحاً معتل الجسم. نزح إلى سرقسطة، ثم اتجه إلى غرناطة ملتجئًا إلى ابن نغريلة وانضم إلى حاشيته. نَظَم عدة قصائد عبرية على نظام الموشحات، كما نظم قصيدة تتناول النحو العبري على غرار ألفية بن مالك، كتب ابن جبيرول بعض الأعمال الفلسفية بالعربية كعادة المفكرين العرب من اليهود، ثم تُرجمت هذه الأعمال إلى العبرية فيما بعد ومنها إلى اللاتينية حيث تركت أثراً في الفكر المسيحي. ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د/ عبد الوهاب المسيري، (٣٠٠/٣)، دار الشروق، ط١، سنة: ١٩٩٩م.

(٢) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ١٠٣ باختصار.

استثنائية تمامًا، أما في أوربا فكان الوضع معكوسًا؛ حيث كانت المذابح المنظمة لليهود أمرًا متواصلًا وثابتًا، أضف إلى ذلك أن العديد من القيود المفترضة، أو الواقعية التي تنطوي عليها وضعية الذمة لم يتم تطبيقها أو لم تطبق إلا فيما ندر...، أما الفارق الثالث المهم فيتمثل في أن اليهود في العالم الإسلامي لا يخضعون لأية قيود مهنية (باستثناء الجيش وأعلى مكاتب الدولة)، في حين أن وضعهم في أُورُبا يختلف – أيضًا – وبشدة من وقت لآخر ومن مكان لآخر، وفي النهاية تجدر الإشارة إلى أن اليهود الذين اعتنقوا الإسلام تمتعوا بجميع الفرص والامتيازات التي يتمتع بها المسلمون القدامى، فانعدام الثقة التي كانوا يجابهون بها في أُورُبًا في أغلب الأحيان كانت غريبة على العالم الإسلامي"(١).

هذا الوضع الذي كانت تواجهه الأقليات اليهودية في بلاد أوربا لم يتغير مع الدولة الليبرالية كذلك، فقد كان اليهود يعيشون "في أوروبا وضع التهميش قبل الثورة الصناعية التي كانت ليبرالية من الناحية النظرية، لكنها كانت في الواقع تتبنى قوانين مناهضة لليهود، منها منعهم من تولي مناصب في الإدارة العامة (بروسيا) ذلك الوضع أدى إلى أن يقارن المثقفون الوضع الحالي والماضي لليهود تحت الحكم المسيحي بوضعهم تحت الحكم الإسلامي، وقد رأوا أن الحكم الإسلامي يمثل نموذجًا للتسامح مع اليهود واستيعابهم في المجتمع. وقد وصل التقييم الإيجابي للإسلام ذروته عند الفترة الأندلسية، التي تحولت إلى أسطورة كنموذج للمجتمع الذي استطاع فيه اليهود التعايش في انسجام مع غيرهم، والمشاركة بإيجابية في السلطة والقيام بأنشطة ثقافية"(٢).

لقد كانت حالة اليهود في دولة الأندلس على عكس ذلك تمامًا من حالتهم في بلاد أوربا – فقد تحسنت أحوال اليهود مع مجيء المشارقة وشاركوا هؤلاء في السيطرة على طليطلة خلال القرن الثامن، وسرعان ما ساروا على عادات جديدة وأصبحوا من البارعين في ميدان الأدب العربي، وعندما بلغ الإسلام في إسبانيا أزهى عصوره السياسية خلال القرن التاسع والعاشر، بدأت الشخصيات اليهودية الكبرى في الظهور على الساحة ففي منتصف القرن

(١) لماذا لا توجد عصور وسطى إسلامية، توماس باور، ترجمة: د/ عبد السلام حيدر، صـ٦٧:٦٨ باختصار.
(٢) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٢٧٦.

التاسع يُجسد اليهودي "حسداي بن شبروط" (٩١٠ – ٩٧٠م)، كاتب "عبد الرحمن الثالث" والذي مارس مهنة الطب اندماج الطائفة اليهودية بالأندلس، ويقيم الدليل على إشعاع الخلافة الأموية بالأندلس، وكان قد أرسله سفيرًا إلى الإمبراطور البيزنطي، وهناك صموئل بن نغريلا – الذي عاش خلال الفترة من ٩٨٢ إلى ١٠٥٥م – حيث أصبح وزيرًا لملك غرناطة، وخلفه ابنه يوسف في نفس المنصب، وفي مملكة سرقسطة احتل أبو الفضل بن حاشداي مركزًا مماثلًا في عام ١٠٦٦م، غير أن هؤلاء أصبحوا أقزامًا إلى جوار أبراهام بن عزرا (١٠٩٣ – ١١٦٧م) المولود في طليطلة...[١].

وفي ظل المشاركات المتعددة لليهود في جوانب الحضارة الأندلسية، يمكن القول بأن "اليهود بالتحديد هم الذين أثبتوا (أكثر من المسيحيين) بمشاركتهم النشطة في الحياة السياسية وفي الثقافة العربية الإسلامية وجود سياسة تسامح إسلامية إزاء الديانات الأخرى والعلاقات الطيبة بين أتباع الديانات الثلاث"[٢].

ونظرًا لتلك المكانة والمنزلة التي تبوأها اليهود في مجال الفكر والأدب، كذا المجال الاقتصادي، فلم يكونوا من الطبقات الفقيرة في الأندلس، بل كانوا من الطبقة المتوسطة، بل كان "هناك يهود أغنياء ومشهورون مثل بني نجريلة في غرناطة وهؤلاء وصلوا إلى منصب الوزارة في عهد الملوك الزيريين[٣]، لكن الغالبية العظمى منهم كما كان الحال مع المستعربين كانت تنتمي إلى الطبقات الوسطى وامتهنوا الحرف اليدوية والتجارة، وقد كان اندماجهم الثقافي في المجتمع الأندلسي سريعًا نظرًا للتقارب اللغوي بين العربية والعبرية مما أدى إلى أن يتخذوا العربية لغة لكتاباتهم، حيث رسخ ذلك الأسس التي بني عليها الدور الثقافي المهم

(١) يُراجع: الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، صـ٤٠. وإسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٥٤٠ باختصار.

(٢) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٢٨٣:٢٨٢.

(٣) يرجع نسب "بنى زيرى" إلى قبيلة "صنهاجة" البربرية؛ ولم تكن "صنهاجة" مجرد قبيلة؛ بل كانت شعبًا عظيمًا، لا يكاد يخلو قطر من أقطار المغرب من بطونه وأفراده، مما دفع "ابن خلدون" إلى القول بأنهم يمثلون ثلث البربر. ينظر: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، المغرب الإسلامي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، (٥٣/٦).

الذي قام به اليهود في العلوم، والثقافة الأندلسية في مختلف الميادين، مثل: الطب والرياضيات والفقه والترجمة"(١).

وبعد ذهاب دولة الأندلس راعية الفكر والحضارة والتسامح بعد القرن الثاني عشر "أخذت تضمحل العبقرية الإسبانية العبرية، وأصبحت منذ تلك اللحظة تعيش على الماضي"(٢).

ومن خلال ما سبق يتبين مدى مشاركة اليهود في أعمال ومناصب الدولة المختلفة، والمكانة التي نالوها في دولة الأندلس كشخصيات مرموقة مشهورة في مجالات العمل في الدولة أو العمل التجاري، أو المكانة العلمية، ويظهر ذلك بوضوح مدى اندماجهم وتعايشهم في ظلال دولة الأندلس.

ولم يكن النصارى بمنأى عن هذا التعايش والتسامح الإسلامي، "فعلى سبيل المثال نذكر أسقف البيرة، الذي يعرف في الوثائق التاريخية بالاسم المُعَرب ربيع بن زيد، والذي كان سفيرًا لعبد الرحمن الثالث؛ نظرًا لعلمه الواسع في المجال اللغوي والثقافي، والذي أوكل إليه الحكم الثاني كتابة تقويم قرطبة المعروف عام ٩٦١م"(٣).

ولعل السر في عدم كثرة الشخصيات النصرانية التي اشتهرت في دولة الأندلس يرجع لأمرين:

الأول منهما: أن جمهرة كبيرة منهم دخلوا في الإسلام وشكلوا ملامح تلك الحضارة الإسلامية في الأندلس، كغيرهم من العرب والبربر.

الثاني: هجرة الكثير ممن بقي منهم على ملته إلى بلاد النصارى في شمال الأندلس.

(١) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٢٢٢.

(٢) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٥٤١.

(٣) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٢٢٠.

المطلب الرابع: زواج المسلمين من غير المسلمات ونظام الأحوال الشخصية

من أبرز أوجه التعايش والتسامح كذلك، أن الاختلاف في الدين لم يكن يمنع المسلم من الزواج من أهل الكتاب، من ناحية التشريع ومن ناحية الممارسة كذلك، فـ"الاختلاف في الإيمان لم يكن عائقًا في وجه علاقات زوجية، وتوجد أمثلة عديدة على وجودها حتى خلال القرن الذي يلي الفتح مباشرة، وقد شهد هذا القرن زواج آجيلون أرملة روذريك ملك الفزيقوت من عبد العزيز ابن القائد موسى بن نصير أو زواج لامبيجي ابنة الدوق أوديس الاكوتاني من **Munuza** رئيس مسيرة البيرنية المسلم، وفي كل العصور تؤكد لنا ذلك مزاوجات من الطرفين بين شخصيات من الطبقة الأرستقراطية أو من ذوي الدم الملكي: فستكون جدة عبد الرحمن الثالث الكبير الأميرة المسيحية دونيا اينيقيا **Dona Iniga** وستزوج الوصي المنصور إحدى بنات ملك نافارا سانشو الثاني وسيدعها تطلق على ابن علاقتها الاسم الروماني **Roman** المتداول: سانشويلو **Sanchuelo** حفظًا لذكرى والدها"[(١)].

وقد كان هذا الزواج وسيلة لنشر الثقافة الأندلسية، التي انفتقت منذ دخول المسلمين إلى الأندلس، ودخول أهل الأندلس في الإسلام، وتعايش المسلمين فيها مع غيرهم من أهل الملل الأخرى على مبدأ التسامح والتعاون المشترك، ومن هنا مثلت تلك الزيجات وسيلة مهمة لنشر الثقافة الأندلسية، فقد "كان الزواج بين سكان إسبانيا الشمالية وأهل الأندلس أمرًا يحدث بصورة متكررة، ليس بين الأمراء وعلية القوم فحسب، بل بين العامة من الناس أيضًا، فهذا شاعر إسباني يتزوج مغنية عربية ويتبعها إلى وطنها غرناطة ويدخل في الإسلام..، ثم يعود إلى قشطالة بعد ثلاثة عشر عامًا بزوجته وثلة من أطفاله، الذين يتحدثون العربية ويترنمون بالأغاني والقصائد الكثيرة التي نظمها والدهم بالعربية مراعيًا الوزن والقافية"[(٢)].

إنَّ تلك الزيجات بين المسلمين والنصارى تُجَلِّي بوضوح مدى ما وصلت إليه حضارة الأندلس من التعايش والتسامح مع الأخر، مع عدم الإجبار أو الإكراه في الدين... كما أن

(١) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٨١.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوربا"، هونكه زيغريد، صـ٥٣١ بتصرف واختصار.

"الصلات بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد ازدادت، على مر الزمن، توثقًا وتماسكًا بفضل الزواج؛ لذلك فإن عرب إسبانيا الذين كانوا، في العصور التي أعقبت الفتح، يفخرون أعظم الفخر، بتحدرهم من أجدادهم في بلاد العرب، لقد كان يجري في عروقهم جميعًا جزء وفير من الدم الإسباني. إذ ما من شك، أنه كان قد حصل، في ظل الخلافة في قرطبة، تمازج عرقي بين العرب الخلص والبربر والمولدين"(١).

ومن هذا التمازج العرقي تم تشكيل أمة الأندلس بتلك الثقافة الثرية، القائمة على التسامح والتعايش السلمي، دون تمييز لطائفة على أخرى.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ١٧.

المطلب الخامس: نماذج لمدن وقرى كانت تضم مختلف الأديان.

ومن مظاهر التسامح في دولة الأندلس، أنه لم يكن هناك أحياء خاصة بالأقليات الدينية، بل تعايشت الأقليات المختلفة مع المسلمين في كل القرى والمدن، حتى مدن العواصم والمدن الكبرى...

فكان المجتمع الإسباني يُمثل كتلة واحدة، بالرغم من تعدد الديانات فيه، فلم تكن هناك أحياء خاصة بالنصارى وأخرى خاصة باليهود، بل "واصل المستعربون (النصارى) العيش في مدنهم الأصلية، كطليطلة وإشبيلية وقرطبة وبلنسية وسرقسطة وفي المناطق الجبلية من مالقة، وكذلك في المناطق الزراعية التي أسهموا في توسيعها بتعاونهم مع السياسة الزراعية للأمراء الأمويين.

وعاش المستعربون في العديد من المدن واختلطوا مع سكانها من العرب، وتظهر الزيجات المختلطة بين المسلمين والنصرانيات بكثرة، ولا سيما في قرطبة وسرقسطة وطليطلة... إن خير ما يمثل ذلك التجمع السكني الخالي من الحدود بين الأقليات هو بقاء الكنائس داخل أسوار المدينة، بل في مركزها أيضًا، كما تشهد على ذلك كنيسة الملك المجاورة للمسجد الجامع في مدينة طليطلة"(١).

كذلك الحال بالنسبة لليهود، فـ"أهم التجمعات اليهودية كانت تتمركز في المدن المهمة مثل طليطلة وقرطبة وبلنسية وسرقسطة، كذلك انطبق على اليهود ما انطبق على المستعربين في خصوصياتهم، فإن اليهود في الأندلس كانت لهم قوانينهم وروابطهم الخاصة"(٢).

ومن عجيب ما يُذكر إننا نجد في حروب النصارى مع المسلمين أن اليهود استغلوا موقعهم داخل بلاد المسلمين في مساعدة النصارى، فعندما "قام فرناندو الأول بغزو مدينة

---

(١) المستعربون: نَقَلَة الحضارة الإسلامية في الأندلس، مارغريتا لوبيز غوميز، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، جـ١، صـ٢٦٩ بتصرف واختصار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، طـ٢، سنة: ١٩٩٩.

(٢) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٢٢١ باختصار.

كويمبرا[١] عام ١٠٦٤م.. واستسلمت المدينة في شهر يوليو، وقد مرت الحملة الملكية بعدة مشاكل قوية تتعلق بالمؤن، إذ نفذت وتولى رهبان لوربان – وهو دير للمستعربين يقع في الأراضي الإسلامية، وهذا دليل على التسامح الإسلامي – حل تلك المشكلة، فلقد أخفي هؤلاء الرهبان في صوامعهم كميات كبيرة من الغلال وقاموا في اللحظة المناسبة بتزويد الجيش المسيحي بها"[٢]. فقمة التسامح أن سُمح لهم ببناء الأديرة في الأرضي الإسلامية، وقمة الخبث منهم في استخدامها في حربهم ضد المسلمين!!!

(١) كويمبرا (Coimbra بالبرتغالية) أو قُلُمْرِيَة أو قلنبرية: مدينة تقع في وسط البرتغال. تبعد ٢٠٠ كم على العاصمة لشبونة و١٠٠ كم على أبورتو. تشتهر لاحتضانها أحد أعرق جامعات أوروبا، وهي جامعة كويمبرا. ينظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي، (٢/٧٢٥)، عالم الكتب، بيروت، ط١، سنة: ١٤٠٩هـ. وموقع بلدية بادوا، (كويمبرا – البرتغال) تاريخ الزيارة/ ٢٠٢٤/١٠/١١م، الرابط// https://www.comune.padova.it/coimbra-portogallo

(٢) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ١٥٣.

المطلب السادس: وثائق الصلح بين المسلمين والنصارى.

ومن مظاهر التسامح في دولة الأندلس، وثائق الصلح التي عقدها المسلمون مع النصارى إبان الفتح الإسلامي – وتم الالتزام بها لاحقًا – فالسلطة الإسلامية في أيبيريا "تأسست عبر اتفاقات أبرمت بالتفاوض وبالقوة العسكرية أيضًا، وقد أقام خلفاء الأندلس للحكام النصارى المحليين استقلالاً دينيًا في مقابل خضوعهم السياسي للحكم الإسلامي، ومن ذلك المعاهدة التي وقعت بين الحاكم المسلم عبد العزيز وتدمر حاكم مرسية القوطي في عام ٧١٣، التي نصت على أن النصارى لن يكرهوا في أمور الدين، ولن تحرق كنائسهم، ولن تؤخذ منهم أشياؤهم المقدسة، بشرط أن يُقسموا بالولاء لحكامهم المسلمين، وأن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم"(١).

وعلى الرغم من قوة المسلمين العسكرية إزاء موقف النصارى الضعيف في الأندلس، إلا أن شروط الصلح لم تكن مجحفة، بل شملت على امتيازات عدة للنصارى، حيث تم احتفاظهم بأراضيهم وحكمهم الخاص بموجب ديانتهم، فقد "عُوملت بعض المدن كمارِدة، وأُريولة(٢) معاملة خاصة بهم، وظفرت من الفاتحين بخير الشروط: فاحتفظ السكان فيها بمتاعهم وأراضيهم، على أن يؤدوا إلى الحاكم الجزية في كل عام، ولم يكن المسيحيون في أسوأ الأحوال ملزمين بدفع ضرائب أكثر مما كان يدفع المسلمون، على أنهم قد ظفروا بعدة حقوق لم تكن لهم أيام ملوك القوط، فأصبحوا في عهد الإسلام قادرين على نقل ملكية أراضيهم لغيرهم"(٣).

---

(١) الدين والدم – إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ترجمة د. مصطفى قاسم، صـ٨٥ بتصرف، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

(٢) مَارِدَةُ: تأنيث مارد، والمارد: كل شيء تمرد واستعصى، ومرد على الشر أي عتا وطغى، ومارِدة بلدة واسعة من نواحي الأندلس، من أعمال قرطبة إحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم، وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب، وبينها وبين قرطبة ستة أيام، ينسب إليها غير واحد من أهل العلم والرواية. أُورِيُولَة: بالضم ثم السكون، وكسر الراء، وياء مضمومة، ولام، وهاء: مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تدمير، بساتينها متصلة ببساتين مرسية. ينظر: معجم البلدان، (١/٢٨٠)، و(٥/٣٨:٣٩).

(٣) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: علي الجارم بك، صـ٣٩:٤٠ بتصرف واختصار.

هذا هو الواقع السياسي والاجتماعي للنصارى تحت حكم المسلمين، والذي يُظهر مقدار التسامح في المعاملة، ودرجة الوفاء ببنود الصلح، تلك الحل التي لا يُمكن مقارنتها بما تم بعد ذلك من معاملة حكام النصارى للمسلمين، بعد زوال الحكم الإسلامي عن بلاد الأندلس، ودرجة الاضطهاد الواقعة على المسلمين من قبل الحكام، ومحاكم التفتيش التي كان يُشرف عليها القساوسة من النصارى!!

ومن خلال ما تم سرده في هذا المبحث، يتبين أن أهم مظاهر التعايش والتسامح في دولة المسلمين في الأندلس تجسدت في:

– منح غير المسلمين (اليهود والنصارى) مكانة "أهل الذمة" التي كفلت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية

– السماح لهم بمزاولة كافة الأنشطة العلمية والثقافية، وتولي مناصب إدارية مهمة في الدولة الأندلسية

وقد استمر هذا التعايش والتسامح حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، وهو تاريخ انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس.

المبحث الثاني: آثار التسامح على الإنجازات الحضارية.

مهدت حضارة التسامح في الأندلس على ازدهار الكثير من المظاهر الحضارية، تلك المنجزات الحضارية، التي شارك فيها أبناء تلك الحضارة على اختلاف أعراقهم وديانتهم، وفيما يلي بيان لبعض تلك المنجزات الحضارية، التي أفرزتها حضارة التسامح والتعايش السلمي في الأندلس.

المطلب الأول: تطور العلوم والفنون والآداب نتيجة للتفاعل بين الثقافات.

يمكن القول بأن اللغة العربية قد شكَّلت الوعاء اللُّغوي في حضارة الأندلس، وبالفعل "كانت العربية لغة محترمة، تستعمل في الإمبراطورية كلها، وموصولة بباقي الحضارة، بل فيما وراء ذلك، كانت اللغة العربية اللغة المشتركة عالميًا، وفي كل مكان تقريبًا من شبه الجزيرة المفعمة بالحيوية، فرضت العربية نفسها بوصفها اللغة الدالة على السمو والرفعة داخل الجماعات من الديانتين، ولم تترك الإدارة الإسلامية الجديدة اليهود والمسيحيين على قيد الحياة فحسب، بل إنها، في إطار تنفيذها لما ورد في القرآن، عملت عمومًا على حمايتهم؛ فعرفت الجماعتان، يهود الأندلس ومسيحيوها، تعريبًا واسعًا بعد سنوات على وصول عبد الرحمن إلى قرطبة، وفي أواسط القرن التاسع نجد "بول ألفار" القرطبي يشكو من عجز الشبان المنحدرين من الجماعات المسيحيين عن كتابة رسالة واحدة باللاتينية، في حين أنهم يكتبون القصائد بالعربية الفصحى تضاهي تلك التي يكتبها المسلمون"(١).

لقد ظلت اللغة العربية بوصفها لغة الحضارة مهيمنة على مشهد الحالة العلمية في الأندلس، حتى بعد طرد المسلمين وإخراجهم منها، فمثلًا مدينة طليطلة وُجِد بها العديد من الوثائق المسيحية، وهي عبارة عن ١٢٠٠ نص قانوني يرجع تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهي تدلنا على استمرار استخدام المسيحيين اللغة العربية بعد قرنين من سقوط طليطلة في أيدي المسيحيين، لسبب واضح هو التفوق الحضاري لأولئك

(١) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، صـ٣٠ وما بعدها.

المسيحيين المستعربين المهاجرين(١).

ومع كون اللغة العربية جسدت ذلك الوعاء الحضاري في دولة الأندلس، إلا أنها لم تكن نقلًا أو محاكاة للحضارة العربية في بغداد أو غيرها من عواصم العالم الإسلامي في الشرق، بل تفردت دولة الأندلس بخصوصية ثقافية وحضارية، جعلتها متميزة عن حضارات المشرق، فقد "تميزت الأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي لها سنة ٧١١م باستقلاليتها داخل المجال الإسلامي (وهي الاستقلالية التي توَّجها إعلان عبد الرحمن الثالث نفسه خليفةً سنة ٩٣٩م)، وبإشعاعها الثقافي الذي وصل حتى داخل العالم اللاتيني، فقد كانت الأندلس آنذاك متألقةً بأكملها... وتألقها الفكري، الذي لا يمكن فصله عن رفاهيتها المادية، هو الذي جعل منها في نهاية المطاف (جوهرة العالم الساطعة)"(٢).

في ظل ذلك التألق والازدهار جاء تطور العلوم المختلفة، وبرز تطور علم الفلك الذي بدأ تقدمه وازدهاره بداية من علم الأدوات، التي تستخدم في الدلالة على مواقيت الصلاة والقبلة.... فممارسة "شعائر الدين المعتادة أدت إلى حدوث تقدم في المعارف العلمية المتصلة بالعبادة في الإسلام، فقد كان من المطلوب تحديد أوقات الصلاة، وكذلك تحديد اتجاه، القبلة، ورؤية الهلال. ومن هنا فقد أدت الاحتياجات الاجتماعية إلى ظهور "المؤقت" أو "الميقاتي"، وهو شخص على دراية بالفقه، والدين، وعلم الفلك. وبالرغم من أنَّ ابن حبيب(٣) لم يمارس مهنة المؤقت لكنه كان أحد المؤلفين الذين اهتموا بهذه القضايا وظلت مؤلفاته مرجعًا على مدى قرون بعد وفاته"(٤).

ويمكن الاستدلال على أن تطور أدوات الفلك، والبراعة في هذا المجال عمت كل مدن

(١) يُنظر: من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣١٣.

(٢) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، صـ٣٤، بتصرف.

(٣) هو: أبو مروان، عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن الصحابي عباس بن مرداس، السلمي، العباسي، الأندلسي، القرطبي، المالكي، سكن إلبيرة من الأندلس مدة، ثم استقدمه الأمير عبد الرحمن بن الحكم، فرتبه في الفتوى بقرطبة، وانفرد ابن حبيب برئاسة العلم. وكان حافظًا للفقه نبيلًا، توفي: ٢٣٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ١٠٣/١٢.

(٤) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٥٤.

الأندلس، فعلى سبيل المثال "لا يستطيع أحد أن يُشكك في اشتغال أهل غرناطة بعلم الفلك، وهذا ما يؤكده وجود صناع أدوات، حيث إن عائلة ابن رشد من البنائين والمؤقتين هي أشهر العائلات، فلم تقتصر على التصنيع التقليدي بل قام أحد أفرادها "أبو علي الحسين" المتوفى عام ١٣١٦ بتصميم خريطة جديدة للعالم"(١).

وقد شارك اليهود في تطور علم الفلك، وبرزوا فيه "وكتبوا مؤلفاتهم بالعبرية، كما في حالة أبراهام بن عزرا ١٠٨٩-١١٦٧م، كذلك تجمع مؤلفات ابن ميمون – فقد كان خبيرًا بثقافة العصور الوسطى وبالشريعة اليهودية. وأعماله التي كتبها باليهودية العربية وبالعبرية وبالعربية كانت أساسًا لكتب أخرى حول مفكرين يهود، ورغم أنه قضى معظم سنوات حياته في مصر فإنه يُعتبر عالما أندلسيًا لأنه كان يرى نفسه يهوديًا يحمل التراث الأندلسي"(٢).

هذا التقدم العلمي في شتى مجالات العلوم والمعرفة، إنما انبثق من دعوة الإسلام للعلم والمعرفة، الإسلام الذي حرر العقل من الخرافات والأوهام، وحثه على طلب الدليل، والنظر في آفاق الكون، وحقًا يمكن القول بأنَّ "اشتغال المسلمين الباهر بشتى العلوم التي كانوا يطلقون عليها اسم العلوم العقلية استجابة لمفهوم الإسلام للإنسان باعتباره كائنًا موهوبًا بنعمة الذكاء، قادرًا على التفكير، لا ينتمي إلى أمة واحدة بل إلى الحضارات جمعاء؛ كائنًا يحتاج إلى ممارسة العلوم والتفكير الدقيق، مما يساعد على تطوير العقل وبعث النظام والتنسيق في أفكاره.

كذلك انتقل – أيضًا – الفكر الفلسفي والصوفي المسلم إلى حضارة الغرب الأوروبية عبر ترجمة مؤلفات الصوفي الغزالي والفيلسوف القرطبي ابن رشد وسواهما من الفلاسفة المسلمين، وقد دشنت أعمال "ابن رشد" تيار الموازنة في جدلية الإيمان والعقل مؤسسة بذلك ضربًا من ضروب الفكر الوسيطي"(٣).

---

(١) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٥٨.

(٢) المرجع السابق، صـ٢٩٢.

(٣) إسهامات حضارية للعالم الإسلامي عبر الأندلس، مارغريتا لوبيز غوميز، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، جـ٢، صـ١٤٧٩، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، طـ٢، سنة: ١٩٩٩م.

ورغم ما سجلته كتب التاريخ من أنَّ فترة ملوك الطوائف كانت فترة نزاع وعدم استقرار سياسي، وهي أحط الفترات التاريخية للأندلس عندهم، إلا أنه في المجال العلمي والمعرفي، نجد أن هذه الفترة قد حازت على لقب العصر الذهبي للعلوم!!!

ففي هذا العصر "عصر ملوك الطوائف (١٠٣١ ١٠٩٠) اكتسب علم الفلك الأندلسي بُعدا جديدًا، برز في إنتاج أعمال جديدة لدرجة أن تلك الفترة قد سميت (العصر الذهبي للعلوم الأندلسية)، وكما أن مجالات الفلاحة والهندسة الميكانيكية والصيدلة والرياضة قد حققت تطورًا مذهلًا، فإن مجال الأدوات المستخدمة في النجوم قد حقق كذلك طفرة وتقدمًا"[١].

وهكذا تطورت العلوم وأدواتها في دولة الأندلس الإسلامية، وعلى مدار تعاقب الدول فيها، وبمشاركة غير المسلمين في حركة التطور والازدهار، هذا النموذج الفريد من التعايش والإبداع المشترك جعل الأندلس مركزًا للتنوير الفكري، حيث تجاوزت الاختلافات الدينية لتخلق مساحة للإبداع والتقدم العلمي، الذي كان سببًا في النهضة الأوربية الحديثة.

(١) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٥٤.

المطلب الثاني: ازدهار الحركة العلمية والترجمة بفضل التبادل المعرفي.

أ) العلوم الطبية:

من أنواع العلوم التي برز فيها علماء الأندلس، وتشهد على تقدمهم العلمي والمعرفي علم الطب؛ حيث عمل الأندلسيون على نقل العلوم الطبية من شتى بقاع العالم، ثم عملوا على تطويرها، فهذه العلوم الطبية وُجد نتاجها بوفرة في مدينة "قرطبة الخلافة وفي مدن أخرى، فعندما كان هناك استقرار في قرطبة فكر الناس في الاشتغال بالعلوم، وعلى مدى قرنين من الزمان سافر مئات من الأندلسيين إلى بغداد ودمشق والإسكندرية والفسطاط والقيروان؛ لكي يتعلموا من الأساتذة المشرقيين، واعتبارًا من أواخر القرن العاشر انتقلت الأندلس من مرحلة استيراد العلوم إلى مرحلة الإنتاج"[١].

حيث ظهر العديد من كبار أطباء الأندلس مثل أبو القاسم الزهراوي[٢] ففي "القرن العاشر ظهر كتاب أبي القاسم الزهراوي، وهو كتاب مدهش تمامًا وغير متوقع في أوساط الطب الأندلسي في النصف الثاني من القرن العاشر؛ لأنه وصل إلى أعلى مستوى في الطب الأندلسي، ولا يمكن مقارنته إلا بكتب الأطباء الكبار في القرن الثاني عشر، إن موسوعته الشهيرة "التصاريف لمن عجز عن التأليف" هي أهم إضافة في علم الجراحة، والكتاب موجه إلى طلبة العلم، كما يمكن استخدامه كمرجع أساسي للطبيب المعالج"[٣] وهذا نموذج واحد ممن برع في الطب في بلاد الأندلس، ويُوجد غيره الكثير أطباء الأندلس المشاهير.

والجدير بالذكر هنا أن هذه الحركة العلمية التطبيقية، أسهمت فيها كل أطياف الأندلس

---

(١) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٦٥.

(٢) هو: خلف بن عباس، أبو القاسم الزهراوي الأندلسي. (الوفاة: ٤٠١ – ٤١٠ هـ)، كان من أهل الفضل والدين والعلم، وعلمه الذي برع فيه علم الطب، وله فيه كتاب كبير مشهور كبير الفائدة، سماه كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف". ذكره ابن حزم وأثني عليه، وقال: ولئن قلنا: إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه للقول والعمل في الطبائع، لنصدقن. مات بالأندلس بعد الأربعمائة. يُنظر: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، الذهبي، (١٦٥/٩).

(٣) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٦٧ باختصار وتصرف.

من المسلمين والنصارى واليهود، فلقد برز يهود الأندلس في "مهن الصيدلة والطب وألفوا فيهما عدة كتب باللغة العربية، تعرف تلك المؤلفات من خلال الإشارة إليها في كتب وضعها مسلمون أو يهود معاصرون أو لاحقون، بينما تقل الكتب التي وصلت إلينا، وبالإضافة إلى ابن ميمون فإن أكثر المؤلفين إنتاجًا بين الأطباء اليهود الأندلسيين هو: يونس بن إسحاق بن بوكلايش من القرن الثاني عشر، حيث يكتسب مؤلفه بعنوان "كتاب المستعين" الذي أهداه إلى أمير سرقسطة المستعين الثاني أهمية خاصة، فهو أول كتاب من نوعه يستخدم الرسوم التوضيحية، والقوائم في الغرب الإسلامي، وكذلك بسبب وفرة المصادر التي يستخدمها بلغات شتى"(١).

وبعد سقوط طليطلة وَجَد النصارى العديد من الكتب والعلوم الطبية المُدونة باللغة العربية، فعملوا على ترجمتها "ففي القرن الثاني عشر، تُرجمت الكتب الطبية العربية إلى اللغة اللاتينية بعد أن انتقلت السيادة على المدينة إلى المسيحيين عام ١٠٨٥م، وبعد أن تحولت طليطلة إلى ملتقى للثقافتين"(٢).

فلا ريب أن تلك العلوم والمعارف التي نقلت إلي بلاد الأندلس، ودونت باللغة العربية، أفاد منها النصارى فيما بعد، وعلى مدار حروب نصارى الشمال لدولة الإسلام في الأندلس، حيث "أسفرت حرب الاسترداد(٣) عن أشكال من المثاقفة، وتقدمت طليطلة التي أضحت

(١) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٢٩٢.

(٢) المرجع السابق، صـ٣٦٣.

(٣) "حروب الاسترداد" عبارة يطلقها العديد من المستشرقين على حملات النصارى على بلاد المسلمين في الأندلس، في تأكيد منهم على غزو المسلمين لشبه جزيرة أيبريا، وهروب من تجريم هذه الحروب التي شنها النصارى على بلاد الإسلام، وقد سبق دحض الزعم القائل بغزو المسلمين للأندلس في التمهيد.. يقول "أميركو كاسترو" في عدم صحة تلك التسمية: "ونتصور في أنفسنا في وضع يتمكن فيه المكسيكيون بعد قرون من الاستيلاء على كاليفورنيا، ولوس أنجلس، وسان فرانسيسكو، ثم نتساءل هل هي حرب استرداد؟ إذن علينا أن ننظر إلى الاستيلاء على قرطبة وأشبيلية، أو غرناطة من نفس الزاوية... غير أنه ليس من المعتاد القول بأن الملوك استعادوا غرناطة، بل استولوا عليها أو قاموا بغزوها". يُنظر: إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٤٠٤:٤٠٥ باختصار.

خلال القرن الثاني عشر عاصمة للترجمة وجالبة للتنافس الفكري والثقافي، خاصة في مجال العلوم والفلسفة"[١].

ب) الترجمة والنقل للعلوم واستيعاب تراث الحضارات القديمة :

هذه الترجمة التي شملت كافة ألوان المعرفة، والتي منها علم مقارنة الأديان، فعلى سبيل المثال نجد شهرة الإمام "ابن حزم"[٢] كأبرز علماء مقارنة الأديان القدامى، ومؤلف كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، والذي ساعده على ذلك وفرة النصوص المترجمة للكتاب المقدس (التوراة، والإنجيل)، حيث برزت "ترجمات نصوص التوراة، التي قام بها نصارى الأندلس المستعربون، والتي كان لها أثر في مؤلفين مسلمين كما يتضح في كتابات مؤلف في مستوى "ابن حزم"، الذي يعلق على عدة فقرات من نسخ من التوراة مترجمة إلى اللغة العربية، كانت موجودة في الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر"[٣].

وفي الجانب المقابل نجد أن إجادة أهل الأندلس للغة اللاتينية، "لا تقتصر أهميتها على الترجمات إلى اللغة العربية، بل يبرز أيضًا استعمال اللغة العربية في نصوص لاتينية؛ يمكن من خلالها التعرف على الواقع اللغوي لنصارى الأندلس المستعربين، إن الحواشي العربية

---

(١) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، صـ٤٠.

(٢) هو: ابن حزم الظاهري، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن معدان بن سفيان بن يزيد، أصله من فارس، ومولده بقرطبة من بلاد الأندلس سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. وكان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمة وتواليف كثيرة، وله كتاب "الإحكام لأصول الأحكام" في غاية التقصي وإيراد لحجج، وكتاب "الفصل في الملل في الأهواء والنِحل"، وكتاب "إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل" وهذا معنى لم يسبق إليه، وكان أديباً شاعراً طبيباً له في الطب رسائل، وكتب في الأدب، مات بعد الأربعمائة، كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفةً مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. يُنظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان البرمكي الإربلي، تحقيق: إحسان عباس، ٣/٣٢٥.

(٣) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٠٥.

المدرجة في نصوص التوراة مهمة للتعرف على مستوى إجادة نصارى الأندلس للغة العربية، وكذلك للتعرف على درجة معرفتهم باللاتينية، وبالتالي على المستوى الثقافي الذي حافظ عليه أولئك المستعربون بعد إقامة الدولة العربية الإسلامية في شبه الجزيرة"(١).

إنَّ حركة الترجمة والنقل للعلوم والمعارف والعمل على تطويرها، والتي كونت حضارة وثقافة علمية معرفية، استفاد منها ملوك النصارى بعد ذلك، وعملوا على نقلها إلى لغاتهم فبعدما "انتصر النصارى في حربهم الطويلة مع المسلمين – التي يسميها كتابهم بحرب الاسترداد – وتمكنوا من احتلال طليطلة عام ٤٧٨ / ١٠٨٥ وتقرر مصير الجزيرة بذلك، أخذ ملوك قشتالة يعملون على رفع مستوى الثقافة بين شعبهم؛ وذلك بنقل كنوز الثقافة الإسلامية إلى لغاتهم، ومن ثم ظهرت في طليطلة مدرسة المترجمين المشهورة، التي نقلت العلوم الإغريقية وما أضافه العرب إليها من شروح وتعليقات إلى المدارس الأوروبية"(٢).

لقد كانت المدن الأندلسية مثل: قرطبة وغرناطة وإشبيلية طليطلة وسرقسطة مراكز ثقافية علمية عالمية، وعمل فيها اليهود والنصارى كشركاء رئيسيين في الحركة العلمية، حيث برز المترجمون اليهود الذين قاموا بدورٍ محوري في ترجمة الكتب العلمية والفلسفية إلى العربية، كذلك النصارى في مدينة طليطلة الذين أسهموا في نقل وترجمة العلوم الطبية إلى اللاتينية.

(١) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٠٦. بتصرف.

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، صـ٤٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١م.

المطلب الثالث: الإنجازات المعمارية والحضرية في ظل بيئة التعايش السلمي.

من آثار التعايش والتسامح الحضاري في الأندلس تلك الفنون المعمارية، التي لا تزال معالمها باقية شاهدة على تلك الحضارة، التي استطاعت بتسامحها أن تقيم وتشيد تلك اللوحة الفنية من العمارة الإسلامية في بلاد الأندلس، والتي اقتفى خطاها اليهود في بناء بيعهم في بلاد الأندلس، وهذا ما أجمع عليه أغلب المؤرخين، فـ"أغلب المتخصصين يعرفون أن صدى الإسلام ظل باقيًا في الآثار التي خلَّفها في غرناطة وقرطبة وطليطلة وأشبيلية، وكذلك العديد من المدن الأخرى"(١).

فمظاهر تلك العمارة لا تزال باقية إلى يومنا هذا في مسجد قرطبة الذي تم بناؤوه على مدار قرنين ونصف، وقصر الحمراء بغرناطة، وقصر مدينة الزهراء وغيرها الكثير... "فالمسجد الجامع بقرطبة الذي شيد في نهاية القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الميلادي، يعكس تركز سلطة جديدة، وتشكل هوية ثقافية، وفي منتصف القرن التاسع.. يقوم "عبد الرحمن الثالث"، ببناء قصر الزهراء – الذي دمره البربر المغاربة خلال فتنة ١٠٠٩م – والذي يُمثل بيانًا سياسيًا، وفي نفس الوقت إنجازًا ثقافيًا أندلسيًا خالصًا"(٢).

فالمسلمون في الأندلس كانوا مؤمنين بضرورة التعايش السلمي مع كل الطوائف المختلفة، والذي يشهد لذلك تأسيس المسجد، والكاتدرائية في نفس الوقت، مما يدل على إدراكهم بأن قيام الدولة حضاريًا لا يتم إلا بمشاركة جميع أبنائها، وإعطائهم الحرية الدينية في ممارسة شعائرهم، فبرغم "المئات من النجاحات العسكرية والمدنية، والفنية والسياسية، ورغم الاستقرار والرخاء اللذين نعمَ بهما عبد الرحمن مبكرًا في قرطبة، إلا أنه لم يحقق ذلك المشروع إلا في نهاية حياته – مسجد قرطبة، ذلك المشروع الذي سيشهد تاريخيًا بمكانته وبما كان يمثله... لقد انطلق الأمويون، الذين نزلوا بسوريا المسيحية، في بناء مسجدهم الكبير الأول، واستطاع الأمير المنفي بناء أول مسجد في الأندلس؛ وذلك يكشف أن مشروع قرطبة والأندلس كان

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٦٣.
(٢) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، صـ٤٠ بتصرف واختصار.

يتمثل في السعي إلى إعادة إنتاج ما دُمر في سوريا"[١].

ذاك المشروع الذي يُجسد عبق الحضارة الأندلسية، ويسمى اليوم بـ"مسجد الكاتدرائية" بعد أن حوله الإسبان إلى كاتدرائية مسيحية، هذه العمارة ظلت شاهدة على التعايش والتسامح الأندلسي، ومما يُجسد ذلك أيضًا في فن العمارة، ذلك الاقتباس الذي نحاه اليهود في بيعهم من عمارة المسلمين، فـ"الوظيفة الرئيسية للإسبان العبريين لا تنفصل عن ظروف التعايش والتلاقح مع التاريخ الإسباني الإسلامي، ومن الواضح أن تفوقهم على أقرانهم في أوربا يرتبط بتفوق الإسلام على المسيحية خلال الفترة من القرن العاشر وحتى الثاني عشر، ولولا احتكاكهم بالإسلام لما عنوا بالفلسفة الدينية، ومن الأمور والدلائل الواضحة على ذلك هو أن اليهود كانت لهم في إسبانيا فقط عمارة لها ملامحها الخاصة، رغم أنها تقوم على أسس الفن الإسلامي، فها هي الروح الإسبانية العبرية تتحدث عن نفسها من خلال البِيَع اليهودية في كل من شيقوبية وطليطلة، وهي أعمال ذات قوة تعبيرية لا نجد لها مثيلًا في أوربا، فالعبرانيون لم يشعروا هناك في – أوربا – أنهم في منازلهم، غير أن هذه التعبيرات المعمارية – التي تهدَّمت كلها تقريبًا – إسلامية، كما أن الشعر والفكر والتقنية، التي توفر عليها الإسبان العبرانيون هي تعريفات للثقافة العربية، وعندما طرد اليهود من وطنهم ١٤٩٢م كانوا يشعرون بأنهم إسبان مثل المسحيين"[٢].

وهذا الشعور لدى اليهود بقوميتهم ووطنيتهم في بلاد الأندلس، هو الذي جعلهم يأخذون في أشكال عمارتهم هذا المنحى العربي الإسباني، بينما لم يُوجد ذلك في أي من بلاد أوربا النصرانية.

هذا التقدم والرقي المعماري جعل أعين الأعداء من النصارى مشدودة نحوه، وأطلق ألسنتهم بالإعجاب والثناء عليه، مع تعدد انتصاراتهم ودخولهم بلاد الأندلس، فـ"رغم الانتصارات الكبرى على المسلمين كان على القشتالي أن يذعن ويقبل بتفوق عدوه في مجال

(١) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، صـ٥٢ وما بعدها باختصار.

(٢) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٥٣٧ بتصرف واختصار.

الإفادة العقلانية، مما تقدمه الطبيعة المحيطة، وقد قام أتباع الملك "فرناندو الثالث" بغزو أشبيلية بعد صراع برز من خلاله الانحطاط العسكري للمسلمين، غير أن الجنود المنتصرين لم يخفوا إعجابهم بعظمة المدينة التي استسلمت لهم، فلم يكن عند المسيحين أعمالٌ بهذه الرفعة، وهذا الرخاء الاقتصادي والتقني والمدني والازدهار العلمي.. كانوا يفتقرون إليه، ومن ثَمَّ أطلقوا ألسنتهم قائلين: "يا للعظمة والجمال والبهاء الذي عليه (مئذنة جامع أشبيلية) وكذلك العديد من الأعمال العظيمة التي لا تتوفر عندنا"(١).

هذا، وقد تم تسجيل أيقونة مدينة إشبيلية "الجيرالدا" كإحدى مواقع التراث الإنساني التابعة لمنظمة اليونسكو. لقد تم بناء "الجيرالدا عام ١١٩٥م كمئذنة مسجد إشبيلية، وقد أصبحت فيما بعد برج أجراس الكاتدرائية، ويبلغ إرتفاع "الجيرالدا" ١٠٣ متر، – وقيل: بل كانت الجيرالدا **Ciralda** برجًا لرصد النجوم والأفلاك. ولم يكن لها درج للصعود بل كان الصاعد إليها يسير في طريق يرتفع به رويدًا رويدًا، حتى إن الفارس كان يستطيع الوصول إليها وهو راكب فرسه، وكانت واجهتها تلمع بالزجاج الملون، وفيها الممرات التي تحيط بها العمد مما نراه في الفن القوطي، وقد ظلت أطول مبنى في إشبيلية لما يزيد عن ٨٠٠ عام(٢).

فمثل هذه المنجزات المعمارية الفريدة من نوعها تشهد على تعاقب الأجيال والأزمان، بعبق ذلك التعايش والتفاعل بين أطياف المجتمع في دولة الأندلس.

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٦٥.

(٢) يُراجع: شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوربا"، هونكه زيغريد، ترجمة: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، صـ٤٨٦، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، سنة: ١٩٩٣م. ومقال: هندسة معمارية، العمارة الأندلسية: أروع نماذج العمارة الإسلامية في الأندلس، موقع ويناس، تاريخ النشر: ٢ يونيو ، ٢٠٢١م. تاريخ الزيارة: ٢٠٢٤/٨/١٣م، الرابط// https://www.weetas.com/article/ar/andalusian-architecture-glorious-islamic-/architecture-andalusia-arv

المطلب الرابع: تأثير التسامح على حركة التجارة والازدهار الاقتصادي.

من المسلم به تاريخيًا أن الازدهار والرخاء الاقتصادي لا يكون إلا عند استتباب الأمن والنظام، وقلة الاضطرابات الداخلية، ولا يتأتى ذلك إلا في بيئة التسامح والتعايش السلمي بين أفراد المجتمع، إذ يعملوا ويتعاونوا جميعًا في سلم الرقي المادي.. وهذا ما تم في بلاد الأندلس، التي تشربت الثقافة العربية الإسلامية "ففي ذلك الوقت بلغت الحضارة العربية في بغداد أوج مجدها، فجنحت سياسة الأمراء في الأندلس نحو التقارب مع الشعوب الإسلامية في الشرق، وبفضل المضي قدمًا في عملية التعريب بالبلاد – والتي كانت تعكس في ذلك الوقت نوعًا من الإثراء الروحي – استطاعت الدعوة الإسلامية أن تتطور بصورة متسارعة، واكتسب الدين الجديد قوة أكثر في البيئة الآريوسية المسيطرة آنذاك"(١).

ومع ذلك التوسع والمد الإسلامي، وتلك الرقعة الزراعية الشاسعة من بلاد الأندلس، عمل المسلمون على حسن إدارتها واستغلالها من خلال عدة مسارات، **يكمن الأول منها في:** ترك هذه الأرضي في أيدي أصحابها، فـ"لم تمتد يد المسلمين في الغالب إلى أملاك المدن والأهلين التي كانت لهم قبل الفتح، نعم، إن أملاك الكنائس صودرت، وكذلك الأملاك التي فر أصحابها إلى جبال الشمال، ولكن العرب تركوا عبيد هذه الأراضي يعملون بها، على أن يؤدوا إلى ساداتهم المسلمين نسبة من الحاصل تتفاوت بين الثلث وأربعة الأخماس... كذلك أبطل المسلمون ما كان يملكه كبار النبلاء ورجال الكنيسة من الضياع الواسعة، وحولها إلى ملكيات صغيرة، وتم رفع عبء الضرائب عن الطبقة الوسطى، واقتصر منها على الجزية على غير المسلمين، والخراج على المسلمين وسواهم، وتم الحث على تحرير العبيد والرفق بهم، وإصلاح أحوالهم فأصبحوا زراعًا مستقلين في خدمة ساداتهم المسلمين"(٢).

أما المسار الثاني: فهو ابتكار العديد من الأدوات والنظم المساعدة في الزراعة فقد "وصلت الزراعة – بفضل ترشيد استخدام نظم الري – إلى درجة كبيرة من التطور لا تختلف

(١) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٣٤٨ بتصرف.

(٢) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٣٩: و صـ٤١.

في مجملها عما وصلت إليه حاليًا، كما يجب التنويه إلى أن انتقال كثير من المصطلحات العربية الخاصة بنظم الري إلى اللغة الإسبانية، يعتبر دليلاً دامغًا على أهمية التأثير الإسلامي في هذا المجال"(١).

واستمر مستوى المعيشة في الارتقاء؛ وذلك بفضل المجهود الكبير الذي بذله المسلمون في التعمير وري الأراضي، ولقد عرفت عين العرب البصيرة قيمة الكنوز، التي يمكن اكتسابها من أرض الأندلس لو أُحسن استغلالها والانتفاع فيها، فحفروا الآبار واختطوا السواقي – التي تراوح محيط عجلاتها بين عشرين وثلاثين مترًا – وتلقوا مياه الجبال المتساقطة في أحواض كبيرة بلغت مساحة بعضها خمسة كيلومترات مربعة، تختزن المياه لوقت الحاجة، تخرج في قنوات ضخمة توزعها على الحقول حسب الحاجة. وهكذا عمروا مرتفعات وسفوح جبال ما كان أحد يظن أنه يمكن أن يستفاد منها في الزراعة لجفافها الدائم... ولم يترك العرب شبرًا من الأرض إلا واستثمروه(٢).

وهذا التوسع الزراعي لاحقه ازدهار تجاري استفاد من الرواج السياسي القائم إبان دولة الأمويين في الأندلس فقد "كان عام ٨٥٠م تاريخًا مهمًّا للمجتمع في إسبانيا، ليس فقط لأن المثقفين المسيحين الأندلسيين بدأوا في الاحتكاك بالإسلام؛ بل لأن الجوانب التجارية والسياسية بدأت آنذاك في نضوجها، بفضل سياسة عبد الرحمن الثاني أثناء فترة حكمه التي امتدت قرابة ثلاثين عامًا، وبدأ آنذاك نوعٌ من الحراك أدى إلى تشكيل ملامح أخرى للمجتمع، فقد زاد الثراء بصورة كبيرة، حيث كانت هناك أساطيل كبيرة تحمل بضائعها إلى بلاد السند، وإلى دلتا نهر الهند "الغانج"، ووصلت أقصى الصين، وتوطدت العلاقات مع الشرق الأدنى بشكل كبير، وأنعشها حماس الأمير الذي كانت له صلات ثقافية مع شخصيات مهمة في تلك المناطق"(٣).

---

(١) تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ليفي بروفنسال، ترجمة: على إبراهيم منوفي، وآخرون، صـ٢٤٠، المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومي للترجمة، ط سنة: ٢٠٠٢م.

(٢) يُراجع: شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوربا"، هونكه زيغريد، صـ٤٩٦:٤٩٧.

(٣) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٣٣٥.

كذلك ازدهرت الحالة الصناعية في بلاد الأندلس، حيث "أقام العرب صناعات نسيجية وتعدينية مدهشة، وتقدمت الصناعة في صقلية بفضل العرب، واستغل عرب صقلية ثروتها الطبيعية، واستخرجوا منها النحاس والفضة والحديد والكبريت والغرانيت والرخام ... إلخ، بأساليب فنية، وأدخلوا إليها صنع الحرير، وتقدموا في أعمال الجلد، وأنجزوا بناء أجمل "أرمادا"(١) في العالم، الأسطول الذي سيكتشف أميركا.. "(٢).

فقد أثرت حضارة الأندلس جميع الشؤون الاقتصادية المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة، وأسهم في ذلك كل أبناء الأندلس على اختلاف طوائفهم.

وبعد أن تم طرد المسلمين من الأندلس، تردي الاقتصاد في عموم إسبانيا؛ نظرًا لتعلق معظم الأعمال والحرف بالمسلمين، وإسهامهم في جانب كبير من دخول الدولة..، "وبالرغم من اختلاف تأثير – طرد المسلمين – من إقليم لآخر إلا أن التأثير كان عامًا، فشكاوى قلة الأيدي العاملة، وارتفاع الأجور هي انعكاس منطقي للدور المهم الذي تقوم به أعمال الخدمة، وكذلك الأيدي العاملة الأجنبية؛ لأن بعض الحرف المحدودة، وهي تلك التي كانت احتكارًا خاصًا للموريسيكيين، عانت بطريقة خاصة من أثر غيابهم، كما رأينا شكاوى مراسية عن تدهور صناعة الحرير، وكذلك شكاوى رئيس بلد الوليد عن اختفاء عمال البساتين، وقد حدث نفس الشيء بشأن حرف ومهن أخرى، وحجم هذه الخسائر كان أكبر بكثير في مدينة أراجون، وحتى نكون أكثر دقة في كل الأقاليم التي كان يمثل الموريسيكيون نسبة مرتفعة من السكان فيها"(٣).

وإنه من الخطأ بمكان أن يسند هذا التدهور إلى قلة الأيدي العاملة أو قلة الدخول من

(١) الأرمادا: مجموعة كبيرة من السفن المسلحة التي تبحر معًا. الأرمادا الإسبانية: (١٥٨٨) الأسطول الذي سيره فيليب الثاني ملك إسبانيا ضد إنجلترا ويسمى أيضًا الأرمادا التي لا تقهر. وكان يتكون من ١٣٠ سفينة تقريبًا و ٣٠,٠٠٠ رجل. الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال، صـ١٢٢.

(٢) في سبيل حوار الحضارات، روجيه غارودي، تعريب عادل العوا، صـ٨٧:٨٨. حضارة العرب – غوستاف لوبون، صـ٣٢١ بتصرف.

(٣) تاريخ مسلمي الأندلس الموريسيكيون، "حياة ومأساة أقلية"، أنطونيو دومينقير، وبرناد بنثنت، ترجمة عبد العال صالح طه، صـ٢٥٩:٢٥٩. بتصرف واختصار.

الضرائب، وإن كان ذلك يؤثر فعلًا، إلا أنه ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أنه مع طرد الموريسيكيين قل كذلك عدد السكان، وقلة الاحتياجات كذلك، ومن هنا يمكن القول إن السبب هو ذهاب المؤثرين الفاعلين في الجانب الاقتصادي، بما يملكونه من مهارات متعددة في نواحي شتى: من الأعمال الزراعية والحرف والمهن اليدوية، التي كان اقتصاد الدولة يعتمد عليها بشكل مباشر في التبادل التجاري، وفي صورة أخرى: فيما يتم فرضه على تلك الصناعات وأصحابها من ضرائب تعود لخزينة الدولة.

المبحث الثالث: أبرز الشبهات حول التسامح والتعايش السلمي في الأندلس.

مما لا شك فيه أن الحالة السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية تؤثر بشكل أو بآخر على طريقة تعامل الأفراد والدول داخليًا وخارجيًا، والسؤال الذي يُمكن طرحه: هل أثرت هذه العوامل على حالة التسامح والتعايش السلمي في الأندلس، أو شكلت بوجهٍ أو آخر تحديات له؟

وللإجابة على ذلك يتم استعراض بعض هذه الأمور ودراسة آثرها على التعايش السلمي، من خلال ما يلي:

المطلب الأول: حالات التمييز والاضطهاد للأقليات.

يزعم "أميركو كاسترو"[1] أن عصر المرابطين والموحدين خلا من التسامح والتعايش السلمي، إذ قدم هؤلاء ومعهم التشدد والتمييز تجاه الأقليات المختلفة (اليهود، والنصارى)، فيقول: "وبعد ذلك جاء المرابطون والموحدون من أفريقيا، ودخلت معهم عناصر التشدد، ولم تعد حياة غير المؤمنين من المسالمين حياة كريمة مريحة، غير أن التسامح كان السّمة

(١) هو: أميركو كاسترو (١٨٨٥ – ١٩٧٢) مؤرخ ثقافي إسباني، وُلد في ولاية ريو دي جانيرو في البرازيل، أحد أبرز النقاد والعلماء الإسبان، تخرج من جامعة مدريد (١٩٤٨م) وقد عمل أستاذًا جامعيًا بها، وأستاذًا زائرًا بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأميركية, ويمكن اعتباره واحدًا من المدرسة التي تنتمي إلى المستعرب الإسباني الكبير كوديرا, أستاذ بالاثيوس وغوميز وعشرات المستعربين الغرب الذين أنصفوا الوجود العربي والحضارة العربية في إسبانيا, وسلكوا في النصف الأول من القرن العشرين طريقًا معاكسًا للدراسات التاريخية التي كانت سائدة في الثقافة الإسبانية التقليدية. يُراجع: المستشرقون، نجيب العقيقي، ٦٠٩/٢، ومجلة العربي، العدد: ٥٦٢، مقال: إسبانيا في تاريخها، المجلس الإيطالي للثقافة والفنون والآداب، سبتمبر، سنة: ٢٠٠٥م.

journal article, Américo Castro 1885–1972, Myron A. Peyton, Hispania, Vol. 56, No. 2 (May, 1973), pp. 353–357 (5 pages), Published By: American Association of Teachers of Spanish and Portuguese .

الأكثر قوة خلال أربعمائة العام الأولى لدخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية"[١].

إلا أن الأمر ليس كما ذكر، بل يمكن القول بأن جملة الامتيازات التي أعطاها المسلمون لتلك الأقليات قلت نسبيًا، نظرًا لكثرة الصراعات الداخلية في تلك الفترة، وتطور دور علماء الفقه الذين عملوا على تطبيق التعامل الحرفي لمفهوم أهل الذمة على اليهود والنصارى، كما أن تعدد الغارات من نصارى الأندلس على مقاطعات الأندلس، قوى هذا الاتجاه، ونتيجة لذلك انحسر دور هؤلاء في بلاط الخلفاء... ولكن لم يكن في ذلك أدنى اعتداء على حقوقهم، أو تعرض لدور عبادتهم وشعائرهم، أو بخس لهم في الجانب الاقتصادي والتجاري...

بل على العكس من ذلك فقد كان "جمهور الأندلسيين في سرور وغبطة لاستيلاء المرابطين على الأندلس؛ فقد أمنوا على أرواحهم وأموالهم، وذلك شيء لم يستطيعوا تخيله أيام كانت المملكة ممزقة إلى ولايات، وكان أقوى الملوك – ملوك الطوائف –من يستطيع أن يحمي رعيته حول قلعته، وأيام كانت الطرق غاصة بعصابات اللصوص، وأيام كان النصارى –نصارى الشمال – يغيرون على القرى وينهبون البلاد، أما الآن فقد استتب النظام والهدوء ولو إلى حين، وخضع الناس للقانون، وهزم النصارى فعادوا إلى حصونهم، وأخذ الناس مرة أخرى يحلمون بالثروة والرفاهية"[٢].

وعلى الرُغم من حالة التشدد والتضيق المزعومة، التي لازمت حكم المرابطين والموحدين، إلا أن هذا لا ينفي أن التسامح والتعايش ظل قائمًا – بل يُمكن القول إن الواقع السياسي هو الذي فرض هذا الاحتراز في تولية اليهود والنصارى بعض مناصب الدولة الحساسة – كما أنه لا يمكن تعميم هذه الحالة على تاريخ الأندلس الطويل.

وبالتالي يمكن القول بأن بعض الاستثناءات لا تلغي قاعدة التسامح والتعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم، كقاعدة عامة سادت في حضارة الأندلس.

---

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٢٤٢.

(٢) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ١٢٠.

المطلب الثاني: تطرف الفرق الدينية والانغلاق على الذات. (شهداء قرطبة).

وأبرز ما يُروجه المستشرقون على فقدان التسامح والتعايش في الأندلس ما يُطلق عليه: "شهداء قرطبة"[1] الذين دفعهم التعصب الديني والانغلاق على الذات، إلى محاولة الانتصار لدينهم، ولو بشهادة مزعومة، تخالف ما تدعو إليه الديانة النصرانية، ورجال الدين، وقبل مناقشة هذه الواقعة، من الجدير بالذكر أن عددًا من المؤرخين نفى ثبوت هذه الواقعة، ومنهم بعض المستشرقين، فـ"أول النصوص التي وصلت إلينا ربما وصل بعد واقعة (الاستشهاد) المزعومة في قرطبة، وبالتحديد في النصف الثاني من القرن التاسع، وفي عام ٨٨٩ تحديدًا.. النص نسخة عربية من (كتاب المزامير) كتبه حفص بن ألبار القوطي. وتكمن أهمية تلك الترجمة في النص الأصلي المترجم، وفي المقدمة التي صيغت شعرًا على شكل أرجوزة. في تلك المقدمة يعرض حفص ما دفعه إلى القيام بالترجمة، ويحدثنا عن وجود نسخة سابقة من النص التوراتي. من المهم أن نذكر هنا أن حفصًا لا يشير ولو إشارة عابرة إلى الأحداث التي زعموا أنها حدثت في قرطبة وضواحيها، وهناك جانب في غاية الأهمية هو الخاص بملامح الترجمة، إذ تحدد لنا الخصائص اللغوية للمسيحيين الشرقيين، وتحدد لنا كذلك تنوع المصادر التي أُستخدمت، مما يشير إلى إمكانية اشتراك المسيحيين الشرقيين في إعداد النص كما ذكرنا سابقًا.

إن نقص المعلومات حول واقعة (الاستشهاد) المشار إليها إنما يعود إلى سببين: **أولهما:** أن تلك الأحداث لم تكن بالحجم الذي عرضه كل من "إيولوخيو وألبارو"، **والثاني:** هو أن حفصًا كان ينتمي إلى مجموعة مسيحية مختلفة عن مجموعة "إيولوخيو وألبارو"، وهذا الاحتمال الثاني يبدو غريبًا لأن حفصًا كان قسيسًا كاثوليكيًا يخضع لسلطة أسقف قرطبة. إذن، ونظرًا لمستوى الحدث، فإن عدم الحديث عن الواقعة يعود إلى عدم حدوثها أصلًا "[2].

(١) لا تصح هذه التسمية لعدة اعتبارات، منها: عدم الثبوت التاريخي، وسبب الاستشهاد، أو القتل إن ثبتت الواقعة تاريخيًا...

(٢) من العرب إلى الموريسكيين .. حلقة من تاريخ إسبانيا، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، صـ٣٠٣ باختصار.

وعلى فرض صحة وقوع الحدث التاريخي، فما هي فحواه؟ وما أسبابه؟ وما حجمه العام في تاريخ الأندلس؟

أما السبب فيكمن في التعصب للنصرانية، ومحاولة الانتصار لها، تحت ستار الاضطهاد الإسلامي ضد النصارى، لقد "جاءت الزعازع في هذه الآونة من عدد قليل من النصارى بقرطبة، التهبت نفوسهم غيرة وتعصبًا لدينهم، أما جمهرة النصارى بالأندلس فلم يصابوا بشيء من هذه الغيرة العنيفة؛ لأنهم رأوا أنهم يُعاملون خير معاملة، وأن المسلمين قد تركوهم أحرارًا فيما يعبدون، وأن الحكام لا يتدخلون في شيء من عقائدهم، وأنهم يتجرون كما أرادوا، ويجمعون الثروة حيثما وجدوها، وأنهم يعيشون كما يعيش إخوانهم المسلمون، فما الذي بقي لهم من أمانيهم؟"(١).

وبعض المستشرقين يحاول التخفيف من هذا فيصف الدافع بأنه للتبشير النصراني، إلا أنه سرعان ما يصف ذلك بالانتحار، فيقول: "لا يمكن لأحد أن يُشكك في اندفاع الجانب التبشيري لكُتاب مدرسة قُرطبة، حيث دعا عدد من هؤلاء الكتّاب – بدافع إيماني أعمى دون توخٍّ لعواقبه – بعض قُرّائهم أن يسعوا إلى الاستشهاد داخل معابد أعدائهم. في الواقع، لم يكن هذا دافعًا نحو الاستشهاد؛ بل دعوة إلى الانتحار، قام بها أهم مُفكري قُرطبة أمثال القديس يولوج الذي تسبب في ثورةٍ شعبيةٍ (٨٥١ – ٨٥٩م) آنذاك انتهت بإدانته، وحكم عليه رُؤساؤه الكنسيون بالإعدام، وقامت السلطات العامة آنذاك بتنفيذ هذا الحكم عام ٨٥٩م"(٢).

فالشخص الذي أشعل هذه الشرارة تمت إدانته من قبل علماء ملته، وكان تنفيذ حكم الإعدام فيه، من جانب السلطات العامة (الحكام المسلمون) بتوصية من علماء النصارى، أليس في هذا أكبر دليل على بطلان واقعة الاستشهاد، أو على التمسك بها في وجه التسامح الإسلامي.

إن رجال الكنيسة المدركين لخطورة هذا الموقف، وحفاظًا على حالة التسامح، والامتيازات والحقوق التي كان يَنعم بها أبناء النصارى "أبت أن تسمح باستمرار روح العصيان من غير

(١) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٦١.

(٢) العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، صـ٣٢٤.

ردع، وكانت في ذلك متأثرة بالفريق المعتدل وبسماحة الحكم العربي، فاجتمع الأساقفة في مجلس يرأسه أسقف إشبيلية، وأصدروا قرارا مهمًا، لم يوجهوا فيه نقدًا لحوادث الاستشهاد السابقة؛ لأن الكنيسة دونت أسماء أصحابها في سجل الشهداء، ولكنهم أمروا أن يمنع كل شغب من هذا القبيل، وذاع هذا القرار بين الناس، وكان من أثره أن أُلقي المتعصبون في غيابات السجون"(١).

والذي يُثير الدهشة والعجب هو حالة هؤلاء الذين قابلوا التسامح الإسلامي، بتلك العصبية الدينية وقاموا بسب رسول الإسلام ﷺ وازدراء الدين الإسلامي، مع أنَّ أحدًا من أفراد المسلمين لم يتعرض للديانة النصرانية ولا لأتباعها، لا قبل هذه الحادثة ولا بعدها، فـ"من العجب أن تسامح المسلمين كان يزيد في سخط النفوس المتعصبة، فلقد كان أصحاب هذه النفوس يؤثرون أن يُعذَّبوا، وأن يُضطهدوا كما اضطهد القديسون من قبل، وكانوا يتشوفون إلى الاستشهاد تشوف الظمآن إلى الماء الفرات، وينقمون من المسلمين أنهم لم "يعذبوهم في سبيل دعوتهم الحقة" حتى يضمنوا لأنفسهم الفوز في جنات النعيم"(٢).

أراد هؤلاء أن يُقلدوا سلوك القديسين الذين كانت تضطهدهم السلطات الرومانية؛ لاعتناقهم النصرانية، ولكن الحال مغاير تمامًا، إنَّ "من المحزن المستدر للرحمة حقًا أن ترى رجالا يقذفون بأرواحهم وأرواح غيرهم في سبيل حلم كاذب، فإن هذا الانتحار الديني لم يكن أكثر تعقلًا أو أدخل في باب الدين، مما كان يقاسيه قساوسة "بال" الذين كانوا يقطعون أجسامهم بالسكاكين، أو مما يفعله زهاد الهنود، الذين كانوا يدخلون أظفارهم في راحتهم ثم يتركونها لتنمو فيها"(٣).

إن أصدق ما توصف به هذه الحالة، أنها حالة تمرد ضد الحكم الإسلامي؛ بغرض وقف المد الإسلامي، وتقليل عدد الداخلين فيه من أبناء النصارى، الذين انخرطوا في الثقافة الإسلامية وانبهروا بها، فكان رد فعل هؤلاء كما يصرح به أحد المستشرقين يعبر عن حالة

(١) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٦٧.
(٢) المرجع السابق، صـ٦٢.
(٣) المرجع السابق، صـ٦٢.

من حالات فقدان الهوية، ومجابهة الإسلام، "فبالنسبة إلى "الباروس" وغيره من النصارى الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم الإسلامي، كان فقدان الهوية الثقافية اللاتينية يحمل معه – أيضًا – إمكانية اعتناق الإسلام. وقد دفعت هذه المخاوف معاصر الباروس المؤثر؛ الكاهن القرطبي يوليوجيوس **Eulogius**، إلى بث عقيدة الاستشهاد بغرض دق إسفين بين الجماعات النصرانية والإسلامية في قرطبة القرن التاسع"(١).

وبالرُغم من هذه الحادثة التي تمثل اعتداءً صريحًا على الدين الإسلامي، وتنال من مكانة رسوله ﷺ من قبل هذه الفئة المنتسبة للنصرانية، إلا أن ذلك لم يؤثر على حالة التسامح الإسلامي، بأي وجه من الوجوه، فـ"نصارى الأندلس لم يضطهدوا، ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها؛ فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر مما يعرف نصارى الأندلس أنفسهم، وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم؛ لأن قدسية المسيح، وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل، من أظهر مبادئ الإسلام، وكل ما في الأمر أن المسلمين كانوا يؤثرون دينهم، فلم يكن للنصارى من عذر في الظهور بمظهر المضطهدين المستذَّلين، بعد أن ترك لهم المسلمون دينهم، وفي الحق إننا لا نجد سببًا معقولًا لتهافت النصارى على الموت، ما دام المسلمون قد سمحوا لهم بإقامة شعائرهم، وأجازوا لهم أن يعظوا وأن يعلموا من غير عائق أو حائل"(٢).

بل نجد في شهادات هؤلاء الذين بثوا هذه الفتنة، حديث مطول في وصف هذه الفترة من تاريخ الأندلس بالحضارة والمدنية، "فقد وصف "يوليوجيوس" قرطبة في عهد عبد الرحمن بأنها "سامية في الشرف، وواسعة في المجد، ومليئة بالثروات والطاقة، وتحفل بوفرة من كل مباهج العالم التي تفوق قدرة المرء على التصديق أو التعبير"، وهو الواقع الذي عمق يأس الرجل على مستقبل الكنيسة. وقيل إنه بين عامي ٨٥٠ و٨٥٩م أعدم ثمانية وأربعون من أتباع يوليوجيوس في قرطبة بسبب الدعوة إلى دينهم أو سب النبي [الكريم] محمد (ﷺ)،

(١) الدين والدم – إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ترجمة د. مصطفى قاسم، صـ٨٧.
(٢) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٦٢:٦٣.

وبلغت الحركة أوجها بإعدام يوليوجيوس نفسه. ومع ذلك، فلم يفلح شهداء قرطبة في تغيير الترتيبات القائمة في المدينة، إذ ظل النصارى يعيشون وفقًا للتشريع الممنوح لإخوانهم النصارى في مناطق إسبانيا الأخرى"(١).

ولكن هل كان حكم الإعدام لهؤلاء خارجًا عن الحدود المتعارف عليها أو المعهودة في مثل هذه الحالات؟ بدايةً هذه الحالة تمثل حالة تمرد على النظام العام السائد، دون سبب يُذكر، ومن جهة أخرى تمثل تكديرًا للسلم العام، ثم إن من المتعارف عليه أن المواطن يجب عليه الالتزام بالأحكام المنصوص والمتعارف عليها في الدولة التي يعيش في رحابها، "ومن الأحكام المعروفة في بلاد المسلمين: أنه يعاقب من يسب النبي أو دينه بالقتل ... نعم إنه حكم شديد قاس، ولكن الدنيا شهدت من القوانين ما لا يقل عنه شدةً وقسوة؛ فقد كان الناس يحرقون بين صيحات السرور في إسمثفيلد وأكسفورد في عصور تلي هذا العصر الذي نكتب فيه، ليس من المسيحية أن تثير عمدًا عراكًا دينيًا أو تسب دينًا غير دينك، وليس استشهادًا بل انتحارًا أن تتعدى مختارًا حدود شريعة يجر تعديها إلى الموت، إن الرحمة التي تثير نفوسنا لشهداء قرطبة، هي بعينها الرحمة التي تخالجنا لمن أصيبوا بالخبَاط (الهيستريا)؛ لأن من قتل منهم كان في الحقيقة شهيدًا لمرض نفسي، وحال هذا تستدعي من الرحمة ما يستدعيه موت المستشهد في سبيل الدين"(٢).

ففي نهاية المطاف وعلى فرض صحة واقعة الشهداء المزعومة، لا تخرج عن كونها حالة تمرد سياسي، تم التعامل معها من قبل السلطات المدنية، وفق القانون السائد، والذي وجِد ما يُناظره في التاريخ القديم والمعاصر.

(١) الدين والدم – إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ترجمة د. مصطفى قاسم، صـ٨٧.

(٢) قصة العرب في إسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، صـ٦٣.

المطلب الثالث: موقف رجال الدين المتشددين تجاه التسامح.

إزاء هذا التسامح الإسلامي نجد على الجانب المقابل عندما تم طرد المسلمين من الأندلس، كيف كانت حالات التمييز، ومدى الحالة التي وصل إليها تطرف المنتمين إلى النصرانية، إذ أوعز القساوسة والكهان منهم بالتنكيل بالمسلمين، وقادوا حملة محاكم التفتيش ضد المورسكيين، كما صرح بذلك نفر من المستشرقين يقول "أميركو كاسترو" في وصف هذه الحالة: "لكن الناس مع مرور الزمن يزدادون تشددًا، فقد انتهت الأسباب التي كانت وراء المصالح المشتركة والاحترام المتبادل، وحدث ذلك عندما قام الشعب بطرد اليهود أو إجبارهم على الدخول في المسيحية، وقد كتب أحد القساوسة (١٥٩٣م) يقول: "يجب ألا نختلط بأسر أخرى، وهذا ما تفعله المسيحية إذ يجب عليها ألا تقبل أو تسمع أخطاء الأمم الحقيرة التي ابتعدت عن الله... ورغم أن المسيح قد جاء لهداية الجميع، نجد أنه قال للكنعانية الوثنية أنه ليس من العقل أن تقدمي خبز الأولاد، وهذا يعنى أن الوثنيين ينبغي أن يعاملوا معاملة الكلاب، طالما أنهم لم يعتنقوا الديانة ولم يؤمنوا بمبادئها" أصبح جليًا أن المرونة الدينية خلال القرون الوسطى أمر لا ينفصل عن الروح الإسلامية التي رأيناها"(١).

فهذه شهادة سجلها "كاسترو" على أن التسامح في القرون الوسطى لم يُوجد إلا في البلاد الإسلامية، أما في غيرها من البلاد التي كانت تقع تحت حكم النصارى، فلم يوجد فيها أدنى درجات التسامح، وهذا ما حدث فعلًا بعد غزو غرناطة من قبل النصارى، إذ أَجبروا من فيها من المسلمين واليهود على التنصر، يقول: "توماس باور"(٢): "من ناحية أخرى فإن غزو غرناطة جعل الأمر واضحًا على الفور للسكان اليهود والمسلمين لشبه الجزيرة الإيبيرية فإما

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، صـ٢٤٦:٢٤٧ بتصرف واختصار.

(٢) هو: توماس يورغن باور، "Thomas Bauer" ولد ٢٧ سبتمبر ١٩٦١ في مدينة: نورنبرغ بألمانيا. من أبرز المستشرقين الألمان في الواقع المعاصر، فهو: أستاذ الدراسات الإسلامية والعربية، بجامعة مونستر، منذ عام ٢٠٠٠م، حتى الآن، وله العديد من الكتب والدراسات عن الإسلام واللغة العربية. ينظر: موقع جامعة مونستر، تاريخ الزيارة/ ١٥/١٠/٢٠٢٤م. الرابط//

http://www.uni-muenster.de/ArabistikIslam/Mitarbeiter/bauer.html

ومدونة العباب، سلسلة المستشرقين، منشور بتاريخ ٣/٩/٢٠١٤م. الرابط:

http://zahirhinai.blogspot.com/2014/09/3.html?m=

التحول إلى المسيحية قسرًا وأما الطرد.."[١].

وانطلاقًا من هذا يمكن القول بأن التسامح في الأندلس، إنما ينسب إلى حضارة المسلمين فيها، ولم يتمكن النصارى بعد ذلك من الحفاظ على هذه الحالة (حالة التسامح والتعايش)، التي كانت قائمة بالفعل فـ"الفترة الإسبانية المعاصرة لما يسمى بالعصور الوسطى تتميز بتفرّدها، وهذا ما يؤكده استخدام القشتالية كلغة علمية خلال القرن الثالث عشر، لقد كان التسامح الإسباني إسلاميًا وليس مسيحيًا... كما أن فكرة التسامح تعكس أيضًا ما كان يتمتع به اليهود من ميزات في ظلال علية القوم.. إلا أن التسامح اعتراه التفكّك عندما ابتعد المسلمون عن ممارسة دورهم كبديل ثقافي مطروح، وعندما أخذ العامة يعتدون على اليهود في نهاية القرن الرابع عشر، وهنا لم يعد المسلمون واليهود والمسيحيون قادرين على العيش تحت سقف واحد... وظلوا في تعايش سلمي دون صداقات كبرى، وهو تعايش حاولت الكنيسة هدمه بكل ما أوتيت من قوة اعتبارًا من القرن الثالث، وفي نهاية القرن الرابع عشر أسهم التيار الشعبي في مباعدة المور[٢] وضرب اليهود"[٣].

فلقد حلَّت العصبية الدينية النصرانية بدلًا من التسامح الإسلامي، وتم إبعاد وطرد كافة العناصر غير النصرانية من بلاد الأندلس، بعدما عاشوا فترات من الاضطهاد السياسي والديني، مع التضيق عليهم في الجانب الاقتصادي، وهذا يجلي بكل وضوح أن فكرة القرون الوسطى بكل ما فيها من مساوئ، لا تُنسب إلا إلى تلك البيئة الأوربية التي جثمت عليها روح العصبية الدينية، فأبعدتها عدة أطوار حضارية وعلمية وفكرية، كان قصب السبق فيها للحضارة الإسلامية.

---

(١) لماذا لا توجد عصور وسطى إسلامية، توماس باور، صـ١٨٨:١٨٩ باختصار.

(٢) المصدر اللاتيني لكلمة مور هو: maurus ، وهي كلمة تشير في العهد الروماني إلى سكان المغرب الأوسط والغربي، لكن كتب التاريخ الأوربية في العصور الوسطى لم تطلق اسم مور على المسلمين إلا بعد دخول المرابطين والموحدين إلى الأندلس، واعتبارًا من ذلك التاريخ وحتى الآن يستخدم لفظ مور للدلالة على غير المسيحي ويحمل لهجة عدوانية تجاه غير المسيحيين. وهي تصغير لكلمة موريسكي، وتحمل معنى الشأن الضئيل في كثير من الأحيان. ينظر: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ميكيل دي إيبالثا، ترجمة: جمال عبد الرحمن، صـ٢٦.

(٣) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، صـ٢٤٤ باختصار.

المطلب الرابع: تأثير الصراعات السياسية والحروب على التعايش.

مر بنا الحديث عن اتهام المرابطين والموحدين باضطهاد اليهود والنصارى، وقد ثبت أن هذا حالة سياسية اختلفت معها أوضاع اليهود والنصارى الذين كانوا يحظون ببعض الامتيازات في أعمال الدولة، إلا أنه في المجمل لم يؤثر ذلك على التسامح القائم، بل على النقيض من ذلك فحينما تشدد الفقهاء في أحكام أهل الذمة، كان هذا أمرًا تنظيريًا ولم يخرج إلى ساحة الواقع، إذ أنَّ كتب التاريخ لم تثبت هذا التشدد عمليًا.

وفي الجانب المقابل نجد تلك الحالة السياسية المتمثلة في استيلاء إيزابيلا القشتالية وفرديناند ملك أراغون على مملكة "غرناطة" في صورة معاهدة شكلية لم يتم الالتزام بها، بل تم معاملة المسلمين على النقيض مما تم النص عليه فيها، "صعدت إيزابيلا وفرديناند إلى تل الحمراء ليتسلما شكليًا غرناطة، ووقَّعا – محاطين بعدد من مستشاريهم اليهود – المعاهدة التي تخوّل للمسلمين حقوقًا شبيهة بحقوق "الذمة". قد لا يرى ملاحظ متهكّمٌ في هذا المشهد غير الخداع والتظاهر والتواطؤ والازدواج، وقد يكون محقًا في ذلك. ولكن، من الأفضل أن نبحث عما هو مشترك وعام في هذا التاريخ. إنه التسامح الديني والثقافي الذي كان موجودًا على الدوام. ينتصر تارة، ويفشل تارة أخرى. كان بإمكان إيزابيلا وفرديناند، باعتبارهما عاهلين كاثوليكيين، أن يتجاهلا نصائح الكنيسة التي دفعتهما إلى طرد اليهود من أراضيهما ونقض المعاهدة، التي كانا وقعاها مع رعاياهما المسلمين. كانت إسبانيا ستلج بذلك عهد الحداثة وتعطي تحديدًا مثاليًا للتسامح الديني، مبنيًا على سياسة ثقافية تتطابق مع تقاليد أسلافهم القشتاليين، منذ ألفونس السادس[1]، غالبًا ما اعتبر قرار فرديناند وإيزابيلا بالتحول والانحراف عن سبيل التسامح، مثالاً على ما لا يُفسر، ونصرًا محتومًا لعدم التسامح، وخاصة في العهد ما قبل الحديث، غير أنه يمكن أن يُفسر ذلك بعدم قدرتهما على ارتياد الأصعب والأشجع من الاختيارات؛ أي الحفاظ على ثقافة كانت تؤكد تعارضاتها...."[2].

(١) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، صـ٢٠٨.

(٢) هو: ألفونس السادس ابن فرديناند الأول Alphonse VI، ولد سنة ١٠٣٠م، وتولى الملك سنة ١٠٦٥م،

إلا أن شيئًا من ذلك لم يقع، بل بعد رحلة طويلة وشاقة من التعذيب والاضطهاد والتنكيل، تم طرد المسلمين في نهاية المطاف من بلادهم، ولم يك ثمة تهديد سياسي أو اقتصادي، بل على العكس من ذلك، إذ كان يُمثل الموريسكيون ثورة بشرية اقتصادية في مملكة غرناطة، "ومن نافلة القول الدخول في نقاش حول ما إذا كان من الضروري طرد المسلمين من بلدهم أو لا... كان الموريسكيون عمالًا ومهندسين، ولقد لاحظ الجميع مدى الكارثة الناجمة عن إبعادهم، ووضح ذلك على قطاعي الزراعة والصناعة.. أصبحت "البشرات" قاحلة لا زرع فيها اللهم إلا في السّهول، رغم أنها كانت خضراء يانعة في أيدي الموريسكيين الذين لم يتركوا شبرًا واحدًا دون عناية"(١).

يصور تلك الحالة من التعصب الديني، التي أعقبها تراجع سياسي واقتصادي، كتاب "تاريخ إسبانيا العام"، حيث يُوصف هذا الطرد بـ"أنه أبشع إجراء يمكن تخيله"، وأنه أسهم يقينًا في التراجع الاقتصادي والسياسي لإسبانيا لاحقًا. ونظر "المتأسبن" ومؤرخ محكمة التفتيش الأمريكي هنري لي(٢) Henry C. Lea إلى إبعاد الموريسكيين بوصفه انتصارًا للتعصب الديني على المصالح العقلانية للدولة، إذ ضحى بالرخاء المادي والتطور الفكري لإسبانيا من أجل وحدة الدين"(٣).

وفي نهاية المطاف "أقيمت محاكم التفتيش الإسبانية، وكانت مهمتها تخليص المجتمع من مواطن الداء، هذا المجتمع الذي كان متصالحاً وراضياً منذ خمسمائة سنة بتعارضاته

واحتل طليطلة واتخذها عاصمة له سنة ١٠٨٥م، وانهزم في (وقعة الزلاقة) سنة ١٠٨٦م، ثم في وقعة أقليش Ucles سنة ١١٠٨م، حيث مات ابنه الوحيد (سانشو) ومات ألفونس على أثره سنة ١١٠٩م، والعرب تسمّيه (الأذفونش قره كند، ملك الإفرنج بالأندلس)، . الأعلام للزركلي، (١٨١/٦).

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٦٨.

(٢) هو: هنري تشارلز لي (Henry Charles Lea) مؤرخ أمريكي، ولد في ١٩ سبتمبر ١٨٢٥ في فيلادلفيا في الولايات المتحدة، وتوفي بنفس المكان في ٢٤ أكتوبر ١٩٠٩م. من مؤلفاته: تاريخ محاكم التفتيش في العصور الوسطى. ينظر: موقع عريق، الرابط//

https://areq.net/m/%D9%87%D9%86%D8%B1%D9%8A_%D8%AA%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D9%84%D8%B2_%D9%84%D9%8A.html

(٣) الدين والدم – إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ترجمة د. مصطفى قاسم، صـ٤٥ بتصرف.

المتنوعة. غير أنه اتضح أن هذا الأمر يسهل قوله ويصعب فعله"[١].

لقد تم معاملة المسلمين بأقسى صور الوحشية، يصور ذلك أحد المستشرقين: "يوجد أحيانًا رجال من أهل السوء يخلون من أي جانب خير يرفضون الإيمان بالمسيح ويتحولون إلى الإسلام... وهذا لأنهم يريدون العيش في رغد أو لأنهم يخشون فقدان ما لديهم، ويُعاقب هؤلاء المارقون بفقدان أملاكهم وقتلهم عندما يقعون في قبضة المسيحيين.."[٢].

وهكذا تعددت جرائم وفظائع النصارى في حق المسلمين بعد زوال دولتهم، ولم يراعوا تلك الاتفاقيات التي تم إبرامها عند تسليم غرناطة، حتى "قد أصبح السجن والتعذيب والحرق وسط النيران، هي عقوبات من يمارس شعائر الإسلام، أو ينطق لغتهم، أو يتغنى بأشعارهم، وأصبحت زيارة الحمام جريمة، وما تبقى من الكتب والمخطوطات العربية، والذي لم يسلب أو ينهب جمَعَهُ رجال الأسقف بمنتهى العناية ليوقدوا فيه النار، وهكذا حرقت يد التعصب مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات هي مجهود العرب في الأندلس، وثمرة نهضتهم في ثمانية قرون"[٣].

على أن شيئًا من ذلك لم يجعل المسلمين يقبلون على المسيحية رغم شدة الاضطهاد والتعذيب وما تقوم به محاكم التفتيش، إذ لا يَصُد ذلك عن دينٍ ترسخ في أفئدة أصحابه، وتغلغل في كيانهم.. فلم تُفلح محاكم التفتيش في مواجهة حقيقة الاقتناع والقبول للدين.

(١) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، صـ٢٠٨.

(٢) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٦٧.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوربا"، هونكه زيغريد، صـ٥٣٥.

المبحث الرابع: آثار التسامح الأندلسي في حضارة أوربا والعصر الحديث.

على الرغم من اندثار حضارة الأندلس منذ أكثر من خمسة قرون، إلا أن آثارها الحضارية – المادية والثقافية – لا زالت موجودة في البلاد الأوربية بشكل عام، وفي دولتي إسبانيا والبرتغال بشكلٍ خاص، وقد تعددت المسالك والمعابر التي سلكتها حضارة الأندلس الإسلامية إلى بلاد أوربا والغرب، "فلم تكن بلاد شمال إسبانيا على صلة بالأندلس في الجنوب فقط، بل كانت كذلك على صلة دائمة ببلاد أوربا سياسيًا واقتصاديًا، ولم تكن جبال البرانس لتمنع تلك الصلات، ومن هنا وجدت الحضارة العربية الأندلسية طريقها إلى الغرب، وقد حمل مشعل الحضارة العربية من الأندلس – أيضًا – ألوف من الأسرى الأوروبيين، الذين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرهما من مراكز الثقافة الأندلسية، كذلك مَثَّلَ تجار "ليون" و"البندقية" و"نورمبرج" دور الوسيط بين المدن الأوروبية والمدن الإسبانية"[1]، وفيما يلي بيان لأبرز تلك الآثار، مع ذكر شهادات علماء الاستشراق على حضارة الأندلس، وكيفية الإفادة وتفعيل هذا التعايش والتسامح في واقعنا المعاصر.

المطلب الأول: آثار حضارة الأندلس على أوربا:

لقد تعددت معابر نقل الحضارة الإسلامية الأندلسية إلى بلاد أوربا، "فعمل كثيرون من العرب كأطباء أو كتبة في بلاط الملوك في برشلونة ولشبونة وبرغش، كما هاجر كثير من المسيحيين المتعربين إلى قشتالة وأرغون وأرجونة، بعد أن دخل المرابطون والموحدون من إفريقيا إلى بلاد الأندلس، فكانت ألوفهم حملة مشاعل الثقافة والأدب الأندلسي، وصاروا بسلوكهم ومظهرهم الحسن مثالاً يحتذى، كما عمل الأسرى من المسلمين. أيضًا على نقل الحضارة العربية لأمراء شمال إسبانية"[2].

إن السبب المباشر في نهضة أوربا الحديثة يرجع إلى حضارة الأندلس، فـ"بداية النهضة

(١) شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوربا"، هونكه زيغريد، صـ٥٣١:٥٣٢ بتصرف واختصار.

(٢) المرجع السابق، صـ٥٣١ بتصرف.

الأوربية لم تكن في إيطاليا كما درج في الخطاب الغربي، وإنما في إسبانيا خلال القرن الثالث عشر وليست نهضة إيطاليا في القرن السادس عشر، وما استتبعها في إنكلترا وفرنسا بعد ذلك إلا ثمارًا بديعة للحركة العلمية، التي عرفتها حواضر الأندلس في تجانس العناصر الدينية والعرقية المختلفة، ومظاهر التسامح الذي ساد بينها على خلاف عصر النهضة الأوربية، الذي هو مبدأ الأزمة الراهنة للغرب حيث تولد عنه النظام الرأسمالي والحركة الاستعمارية"(١).

ويؤكد ذلك غوستاف لوبون فيقول: "ولم تكن الحروب الصليبية سببًا في إدخال العلوم إلى أوربا كما يُردَّد على العموم، وإنما دخلت العلوم أوربا من إسبانية وصقلية وإيطالية، وذلك أن مكتبًا للمترجمين في طليطلة بدأ منذ سنة ١١٣٠م يَنقُل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، وأن أعماله في الترجمة كُلِّلَتْ بالنجاح، ولم يتوانَ الغربُ في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد"(٢).

لقد تعددت آثار حضارة الأندلس في أوربا، حتى شملت العديد من الجوانب: اللغوية والثقافية، بالإضافة للتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية، وفيما يلي رصد لأبرز مظاهر تلك الآثار الحضارية التي لا زالت تُلقي بظلالها على بلاد إسبانيا:

أولًا: التأثيرات اللُّغوية والثقافية:

فلا تزال اللغة الإسبانية والبرتغالية غنية بألوف الكلمات والألفاظ والتراكيب العربية، وفي هذه المفردات الدليل الأكبر على تأثير الحضارة الأندلسية اللغوي والثقافي، كما أنه من الملاحظ أن أغلب هذه المفردات متعلقة بالجوانب الحاجية في المجتمع، فهناك آلاف المفردات والألفاظ والمصطلحات العربية في اللغة الإسبانية والبرتغالية، التي لا زال بعضها حيًا، بينما عفا الزمان على بعضها الآخر، وهذا انعكاس لحاجات وضرورات ملحة...، فلا

(١) يُنظر: في سبيل حوار الحضارات، روجيه غارودي، صـ٨٤ وما بعدها. وحوار الحضارات كأفق للتعايش السلمي، عبد الرحمن خرشي، ومحمد بومانة، مجلة الناصرية للراسات الاجتماعية والتاريخية، مجلد ١٠، عدد:١، صـ٤٥٥، سنة: ٢٠١٩م.

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، صـ٥٨٦:٥٨٧.

زال هناك الكثير من المفردات العربية في لغة الأدب واللغة الدارجة...، ومن الواضح أن العنصر النورماندي في اللغة الإنجليزية جاء نتيجة أمر فُرض عليهم، أما العنصر العربي في اللغة الرّومانية الأيبيرية فيرجع إلى ضرورة مُلحة تتعلق باستيراد الحاجيات التي هي ثمرة القدرات الإنتاجية العربية المتفوقة، وتتعلق تلك الواردات اللغوية بمناحي شتى في الحياة إذ تشمل الزراعة، وتشييد المباني، والحرف المختلفة، والتجارة، والأدوات العامة، والعلوم، والفنون، وشؤون الحرب(١).

ولم يقتصر الأمر على العديد من الألفاظ والمفردات اللغوية، بل تعدى ذلك إلى الكثير من الجمل والأمثال والحكم، التي تُرَدُ إلى أصل إسلامي بحت، فـ"هناك تعبيرات قرآنية يتم تداولها في لغة الحياة اليومية، ومن يقرأ القرآن بعناية سيعثر على الكثير ونقول على الآلاف من الأقوال والأمثال الإسبانية، فيقال بالإسبانية – مجازًا – "إن فلانًا حمار محمل بالعلوم" وذلك معناه أن القيمة الثقافية لذلك الإنسان ضعيفة رغم أنه يعرف الكثير... وفي البرتغالية عبارة مرحة تقول: "إن الحمار المحمل بالكتب دكتور"، وهنا يتضح معنى العبارة بشكل أفضل، وعندما نقرأ القرآن نجد أنه يوضحها بجلاء لا لبس فيه إذ تقول الآية: قوله تعالى: {مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ} [سورة الجمعة:٥]. وقد لام القرآن اليهود على أنهم لم يعملوا بما جاء في التوراة رغم أنهم يعرفون الرسول جيدًا..."(٢).

ويمكن القول بأن هذا التأثير كما ظهر أثره في الأمثال والمفردات والتراكيب اللغوية، كذلك كان له أثرٌ واضحٌ على الأدب والتصوف الإسباني، "فالأدب الإسباني استلهم من المصادر العربية... وتصوف كبير الزّهاد: "سان خوان دي لا كروث"(٣) لا يمكن فهمه خارج

(١) يُراجع: إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، صـ٦٣، ٦٥:٦٦.

(٢) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٩١:٩٢ باختصار.

(٣) هو: سان خوان دي لا كروث San Juan de la Cruz، (١٥٩١-١٥٤٢م)، شاعر صوفي إسباني، تأثر خوان دي لا كروث بالشعر الصوفي العربي ولاسيما بابن عربي، وقد انعكس هذا جلياً في ديوانه «نشيد» Cántico، المؤلف من أربعين مقطوعة، عكست حساسية مرهفة تحولت فيها الطبيعة وعناصرها إلى رموز صوفية. ينظر: الموسوعة العربية، الرابط//

نطاق الزهد والتصوف الذي كان يمارسه الموريسكيون القشتاليون، وعندما نفكر في الشخصية الإسبانية لا يمكننا أن نباعد جانبًا تسعة قرون من النسيج الاجتماعي الإسلامي المسيحي"(١).

لقد جسدت اللغة العربية بثرائها إلى يومنا هذا – في اللغة الإسبانية والبرتغالية – ذلك الأثر الحضاري، الذي يدل على الامتزاج الاجتماعي والثقافي الذي كان في حضارة الأندلس، الذي لم يقتصر على الألفاظ والأمثال ذات الأصل العربي، بل تعداه إلى اللغة الدارجة التي تُشكل الحياة اليومية، فهناك الكثير من "العبارات ذات الأصل العربي، مثل: "هذا هو بيتك" وهي العبارة التي نوجهها اليوم لمن يقوم بزيارتنا في المنزل لأول مرة، وعندما يذهب الزائر نقول له "ها أنت تعرف أن البيت ملكك" ويقولون له في البرتغال "تصرف كأنك في بيتك"، "البيت تحت أمرك"، وهذه العبارات هي ميراث عربي، ويستغرب الأوربيون عندما يقومون بزيارة أحد في لشبونة أو مدريد أو برشلونة عندما يسمعون مثل هذه حين يقومون بزيارة أحد في منزله أول مرة"(٢).

وفي هذه العبارات الدارجة والشائعة ما يدل على الأصل الديني، وليس الأصل العربي فحسب، ولا يُوجد لها نظائر في الثقافات الغربية، فـ "هناك عبارات شائعة مثل "إن شاء الله" و "إذا ما أراد الله".. وسرعان ما يتبادر إلى الذهن أن تلك العبارات ترجع إلى الديانة الكاثوليكية إلا أن استمرار عبارات مثل **ojala** إن شاء الله، وشاء الله تشير إلى الأصول الأولى، وما نراه ليس إلا مثالًا آخر من أمثلة إدخال تحوير على العبارات، والدليل على هذا أنه لا يمكن القيام بترجمة حرفية لعبارة (إلى اللقاء غدًا إن شاء الله) إلى أي لغة من اللغات الأوربية رغم أنها من العبارات العادية لدى الجماهير الفقيرة من الإسبان الذين ينطقونها دون إدراك البعد الديني"(٣).

---

https://arab-ency.com.sy/ency/details/3970/9

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٦٣ بتصرف.

(٢) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ١٠٥: ١٠٦ باختصار وتصرف.

(٣) المرجع السابق، صـ١٠٦: ١٠٧ باختصار.

إن بقاء اللغة العربية في العبارات الدارجة المتداولة بين جماهير الإسبان؛ ليدل دلالة واضحة على أنهم أَلفوا استخدامها من قبل أجداهم، الذين كانوا يُمارسونها في نطاق مجتمعهم الثقافي الاجتماعي، دون غضاضة في أصلها، إذ لم يشعر هؤلاء الأجداد في ظل حضارة الأندلس بذلك التغاير أو التسلط الحضاري، بل في رحاب التسامح والتعايش اندمجوا في المجتمع الإسلامي، واستمدوا من ثقافته، وبقاء هذه الأمثال والعبارات الدارجة من خير برهان على تلك الحالة والحضارة المتسامحة.

ثانيًا: التأثيرات الاجتماعية:

فعلى مدار التاريخ الممتد لحضارة الأندلس في إسبانيا، ومع روح التعايش والتسامح تسربت العديد من مظاهر الحضارة الإسلامية إلى إسبانيا المسيحة، وامتد أثرها إلى عقود متأخرة، ومن هنا يمكن القول بأنه "لم تكن تأثيرات إسبانيا المسيحية على إسبانيا العربية، تقارن ولو من بعيد، بتأثيرات إسبانيا العربية على إسبانيا المسيحية، تلك التأثيرات تمكنت الأندلس، طوال تلك العصور ذاتها من أن تبسطها على الممالك الإسبانية في الشمال وعلى جنوب فرنسا العربي بطريقة أقل مباشرة. إن الإشعاع الذي كانت تعكسه قرطبة على المسيحية الغربية لا يمارى فيه وهو الذي يعلل، من ناحية أخرى، الاستعارات من جهة واحدة"(١).

ومن تلك المظاهر الاجتماعية لبس الخمار للمرأة، فقد "ظلت تغطية النساء وجوههن (الخمار) قائمة حتى عهد قريب في طريف (قاش)، وفي بعض المدن "فيث بيرو"، كما أن كلمة **tapada** تطلق في الأرجنتين على معاطف النساء قبل ذلك، وهي كلمة مرجعها إلى العباءة"(٢).

ويقول "أميركو كاسترو" عن عادة تغسيل الموتى، التي تم العمل بها في بعض الفترات التاريخية في شمال إسبانيا النصرانية إنما تعود إلى عادة إسلامية، فيقول: "أعتقد أن تغسيل الموتى هو تقليد إسلامي، ففي قصيدة "فرنان جونثاليث" (١٢٤٠م) نجد أن الكونت القشتالي

(١) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٨٣:٨٤ باختصار.

(٢) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ١٠٤.

يأمر بتغسيل جسد كونت تولوسا: غسلوه ولوفوه بقماش ثمين....، ويشير كتاب "التاريخ العام" إلى أن الكونت "فرنان جونثاليث" قام بنفسه بنزع السلاح والملبس عن كونت "تولوسا" في المكان الذي لقي فيه حتفه فيه، وأمر بغسله... ومن الواضح أن كثيرًا من العادات التي أقوم بتحليلها يمارسها أيضًا اليهود الإسبان الذين تربطهم صلاة قوية بالمسلمين، إلا أن غسل الميت أخذه المسيحيون الإسبان من المسلمين"(١).

ومن المظاهر الاجتماعية التي درج عليها أهل إسبانيا، حتى بعد طرد المسلمين منها، استخدام الحمامات العامة حتى اندثرت بعد ذلك، على اعتبار أنه ممارسة خاصة بالمسلمين، فاستخدام الحمامات العامة كان شائعًا بين كافة أهل إسبانيا، ولكنه "أخذ ينحسر بين المسيحين، وابتداء من عام ١٥٢٦م جُرِّبت محاولات لإلغاء الحمامات الخاصة بالموريسكيين، إذ تم منع المورسكيين من ممارسة عاداتهم.. وفي عام ١٥٦٧م عُقد اجتماع مهيب، وعلى أثره تم هدم كافة الحمامات المنشأة في غرناطة، ونسي الناس في إسبانيا عادة الاستحمام مثلما هو الحال في أوربا، وظل الأمر كذلك إلى أن قام البريطانيون بإدخال هذه التقاليد من جديد"(٢).

إن الكثير من العادات والمظاهر الاجتماعية قد حافظ عليها أهل إسبانيا من النصارى حتى بعد طرد المسلمين منها، لأنها لم تكن تُمثل بالنسبة لهم حالة خاصة بالمسلمين، بل كانوا يتعايشون معها كجزء من حضارتهم وثقافتهم التي اكتسبوها من الثقافة العربية الإسلامية، وشكلت حضارة الأندلس التي لم يشعر النصارى بالانفصال المادي أو الثقافي عنها، وإلا فلا وجه لتمسكهم ودوامهم على تلك العادات والمظاهر، إذا كانوا يرون أنها من خصوصيات العرب والمسلمين، "فالعادات التي حافظ عليها المسيحيون الإسبان ما هي إلا انعكاس حيّ للحضارة الإسلامية... ولو وضعنا قائمة للقرى التي يوجد بها "حمامات" في إسبانيا العصور الوسطى لتوفرت لدينا معلومة مهمة لقياس حجم التأثير الإسلامي فهناك

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ١٠٣.

(٢) المرجع السابق، صـ١٠٢:١٠٣.

الكثير من القرى في قشتالة كان بها حمام عام خلال القرن الثالث عشر"(١).

ثالثًا: التأثيرات المادية الاقتصادية:

لم يقتصر تأثير الحضارة الإسلامية في الأندلس على الجانب الثقافي أو الاجتماعي، بل تعداه إلى الجانب المادي الاقتصادي – هذا الجانب الذي يَدين فيه الغرب للعرب بالكثير والكثير من المبتكرات والأدوات، وفي إسبانيا على وجه الخصوص، "استخدم المسيحيون العديد من المبتكرات التي ابتدعها المسلمون سواء على الصعيد المادي أو الإنساني، غير أنهم لم يتمثَّلوا جيدًا الأنشطة الإنتاجية لتلك المبتكرات.... إذن فإسبانيا العصور الوسطى هي نتيجة التوليف بين موقف الإذعان وموقف الإعجاب بعدو أقوى"(٢).

وفي مجال الزراعة نجد العديد من طرق الري، والأدوات الزراعية التي ابتكرها المسلمون، "وما زالت أرض الأقاليم الشرقية في إسبانيا بفضل تلك الطرائق في الري، تحرث كما كان الأمر في زمن المسلمين. وهذا لا يعني أن اصطلاحات الري ليست عربية، فهي عربية، ما عدا بعض الشواذ النادرة، ابتداء من النورية **Natia** وهي كلمة انتقلت من الإسبانية إلى الفرنسية، ولم تكن غير الكلمة العربية ناعورة. وكذلك هي الحال في المفردات الخاصة بصيد البحر، لا سيما إذا كانت ممارسة هذا الصيد بواسطة الشباك أو المضربة بالعربية **Madragues** بالفرنسية والإسبانية"(٣).

بل أدخل المسلمون العديد من الأشجار وأنواع المحاصيل إلى إسبانيا، وبرز ذلك جليًا في مفردات المعاجم الإسبانية المتعلقة بعلم النبات، "فأكثرية أسماء الفاكهة والأزهار المنزرعة تشهد حتى الآن في إسبانيا على استعارة مباشرة من اللغة العربية، وقد انتقل أيضاً ، عدد كبير من هذه الأسماء الى المفردات الفرنسية: مثل المشمش (برقوق) **abricot** ، الزعرور **aterole** الياسمين **jasmin** ، القطن **coton** ، الزعفران **xafran** ، وما زال الزيتون يدعي في الإسبانية **aceiluna** والزيت **aceite** ويتساءل المرء فيما يتعلق بهذه الثمرة

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ١٠١.

(٢) المرجع السابق، صـ٦١.

(٣) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٩٠.

ومستخرجاتها ، لماذا لم تتقلب التعابير اللاتينية كما هو شأنها في اللغة الفرنسية ما دامت زراعة الزيتون في إسبانيا لم تكن من ابتكار العرب، وتدين اللغة الفرنسية ، بطريق الإسبانية ، إلى العربية بعدد من أسماء الألوان المستقلة عن أسماء الأزهار والفاكهة : أزرق **azur** ، اصهب **alezan** ، قرمزي **carmaisie** ، شقائقي ، **écarlate**"(١).

وبعد أن كانت بلاد إسبانيا يُرثى لها أيام حكم القوط الغربين، الذين كان جُل اهتمامهم بجمع الضرائب، وعملوا على توطيد الإقطاع في إسبانيا، "أقام العرب أجمل منشآت الري التي عرفها العصر، ولا يزال المتحدثون يلهجون إلى اليوم بالكلام على حدائق (مرسي) حديثهم عن حلم"(٢).

إن من الدلائل القوية – التي تُضاف إلى ما ذكر في التمهيد – على عدم صحة القول بالغزو العسكري للأندلس من قبل المسلمين، أو أن أهل إسبانيا أُجبروا على الدخول في الإسلام، وجود تلك التأثيرات اللغوية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، التي لا تزال حاضرة إلى يومنا هذا في ثقافات دولتي إسبانيا والبرتغال (الأندلس)، وإنه على مَرِّ التاريخ لا توجد أمة تعرضت للغزو والاحتلال، ثم استعادت حريتها إلا لفظت تراث المحتل بجملته، أو أرجعت ما جاء به من تقدم إلى لغتها وثقافتها، فصاغته وقامت بمزجه في ثقافتها، أما أن يظل ذلك التراث فاعلًا حيًّا على مرِّ السنون، فذلك أكبر دليل على أنه ليس دخيلًا على الدولة أو أنه من ثقافة الغزو والاحتلال، بل – كان ولا يزال – يُنظر إلى ذلك التراث على أن يُجسد تراث أمة الأندلس على مختلف أطيافها وتنوعها الديني والأممي، في إشارة قوية إلى ما جسدته تلك الحضارة من تعايش وتمازج وتفاعل وتسامح في تلك البلاد.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، صـ٩١.

(٢) في سبيل حوار الحضارات، روجيه غارودي، تعريب عادل العوا، صـ٨٤.

المطلب الثاني: موقف المفكرين الغربيين من تجربة التسامح الأندلسية.

وفي ختام البحث نَعْرِض عددًا من شهادات المستشرقين المعاصرين – المنشغلين بالدراسة في تاريخ الحضارة الأندلسية – والمشهود لهم بالجدارة العلمية في جامعات أوربا، تلك الشهادات التي تُعبر عن عظمة الحضارة الإسلامية، وطبيعة تسامحها وتعايشها السلمي، الذي ظلت محافظة عليه طيلة ثمانية قرون، رُغم العديد من معوقات ذلك التسامح والتعايش.

يقول "أميركو كاسترو": "لقد كان الإسبان المسيحيون يعيشون تحت أفق التسامح، الذي وضعه الإسلام، وأسسوا حياتهم على هذه القاعدة، فهذه الحياة التي كانوا يعيشونها، يقول الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]. ويقول أيضًا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [سورة يونس:٩٩-١٠٠]. والقرآن الذي جمع بين الجهاد والزهد في الحياة هو مثال عظيم للتسامح، وقد تدعم هذا الموقف المتسامح مع انتشار الإسلام؛ حيث دانت له شعوب ذات عقائد مختلفة، كما أن التعايش الديني كان يساعد على الاستغلال الأمثل للبلاد التي تم غزوها"(١).

مع التحفظ الوارد في كتابات "أميركو كاسترو" في بعض المواطن عن حضارة الأندلس، إذ يَصف الفتح الإسلامي للأندلس بأنه غزو، وفي أحيان أخرى يَصف دولة المرابطين والمُوحدين في الأندلس بأنها قامت باضطهاد الأقليات – وقد سبق الرد على ذلك – إلا أنه في المجمل يُبجل الحضارة الإسلامية في الأندلس، ويعزو سر تألقها التاريخي والحضاري إلى الإسلام فيقول: "إنني أكرر ما أقوله مرات ومرات بهدف توضيح أن البعد التاريخي في الملحمة الإسبانية، يمثل جانبًا من التكامل القائم على خمسمائة عام من التعايش مع الإسلام. لكن الإسلام بقي رغم الطائفية والخلافات، والسبب هو أن القرآن هو الجوهر وهو إعلان

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، صـ٢٤١ باختصار.

الإيمان: (لا إله إلا الله) وليس الانتساب إلى كنيسة تقوم على التدرج الذي يتجاوز الفرد"[١].

وتقول "ماريا روزا مينوكال"[٢]في كتابها المتميز عن حضارة الأندلس – الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح –، مبينة أن أكبر إنجازات تلك الحضارة هو التسامح والتعايش، فتقول: "شهد هذا العصر تعايش اليهود والمسيحيين والمسلمين: لقد تمكنوا، بعيداً عن اختلافاتهم التي يتعذر حلها، من تغذية ثقافة ثاقبة قائمة على التسامح، هذا المفهوم الصعب هو الذي أردت أن أثيره في العنوان الفرعي للكتاب. ولم يكن يعني هذا التسامح، إلا فيما ندر، الاعتراف بالحريات الدينية، أو حرية المعتقد كما نتصوره، في إطار مفهوم معاصر لهذا اللفظ؛ إن هذا التسامح كان يتجلى فعلاً في العقيدة الضمنية والمضمرة، وفيما يطبع الثقافة الوسيطية، تجد عناصر لا تُحصى جذورها في هذه الثقافة، في تعقدها، في مُتعها، وفي تحديدها للتعارض، وقد كانت هندسة التعارضات تجد تعبيرها في الثقافة التي كانت تأويها الأندلس، وهذا ما يجعلنا نعيد النظر في خريطة أوروبا، ونضع البحر الأبيض المتوسط في مركزها، ونعيد النظر على الأقل في هذا الجزء من تاريخنا من منظور الأندلس. هنا أعاد اليهود، وقد تعربوا بصورة عميقة، اكتشاف العبرية وأعادوا ابتكارها، وهنا تبنى المسيحيون كل مظاهر الأسلوب العربي تقريباً، والمنهج الفلسفي، وحتى الهندسة المعمارية للمساجد، ولم يقتصر هذا على زمن السيادة العربية، بل تعداه إلى زمن ما بعد انتزاع السلطة

(١) إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود، أميركو كاسترو، صـ٣٥٩.

(٢) هي: ماريا روزا مينوكال (كوبا ١٩٥٣– الولايات المتحدة الأمريكية ٢٠١٢م)، أستاذة وباحثة في جامعة ييل من فيلادلفيا سابقًا، درست التفاعلات بين اليهود والمسيحيين والمسلمين في إسبانيا في العصور الوسطى، حصلت على درجة البكالوريوس من جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٧٣م، ودرجة الماجستير في اللغة الفرنسية من جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٧٥م، والدكتوراه من جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٧٩ في علم اللغة، كانت أستاذة مساعدة في جامعة بنسلفانيا ومديرة بالإنابة لمركز الدراسات الإيطالية، ومن عام ٢٠٠١، كانت مديرة مركز ويتني للعلوم الإنسانية في جامعة ييل. يُنظر:

Nadia R. Altschul, MLN, Johns Hopkins University Press, Volume 128, Number 2, March 2013 (Hispanic Issue), pp. vii–viii. And: Maria Rosa Menocal, 59, professor of medieval Spain, by Sally A. Downey, Inquirer Staff, Published Oct. 29, 2012, Date of visit: 8/21/2024.

منهم.. لقد أدرك هذا النموذج المثالي من التسامح ما كان يمنحه التنوع والتعدد الفردي والثقافي، من غنى ومن ثمار، إننا نقف حيارى أمام ما بقي واستمر من الثقافة الأندلسية..."(١).

تترجم "ماريا" التعايش والتسامح الحضاري في الأندلس، في العديد من المظاهر الثقافية التي تعاضد وتعاون عليها مواطنو الأندلس على اختلاف ديانتهم، مع تحفظ الباحث لوصفها الحضارة الأندلسية بثقافة القرون الوسطى – وقد ثبت أنه لا يمكن بحال من الأحوال وصف الحقبة التاريخية من الحضارة الإسلامية التي كانت توازي فيها أمة أوربا تاريخيًا بالقرون الوسطي، إذ أن هذا الوصف في مبناها ومغزاه وصف حضاري لا تاريخي، فهو متعلق بتراجع الحضارة الأوربية التي وصفت بعصور الظلام في ذلك الوقت، بينما كانت تعيش الحضارة الإسلامية أَوج ازدهارها...

ثم تعقد "ماريا" مقارنة بين "القوط الغربين" الذين احتلوا إسبانيا فترة طويلة من الزمن، ولم يؤثروا فيها حضاريًا بل ظلوا فيها أقلية عرقية متميزة عن شعب إسبانيا، وبين المسلمين الفاتحين لإسبانيا، والذين ارتفعوا بها في البنيان الحضاري، فتقول: "فخلافًا للقوط، الذين تميزهم إثنيتهم قبل كل شيء، ولبثوا أقلية على مدى السبعمائة سنة، التي هيمنوا فيها على إسبانيا، كان المسلمون ينحدرون من جماعات إثنية متنوعة. وكانت قوة المسلمين تكمن، شأنهم شأن المسيحيين قبلهم في اقتناعهم بأن الحوار لم يكن ممكنًا فحسب، بل إنه كان مرجوًا ومأمولًا، وينبغي تشجيعه ودعمه"(٢).

أما عن أثر الحضارة الأندلسية على الحضارة الأوربية الحديثة فتقول: "إن الحداثة الأوروبية تعود في كثير من مظاهرها وأفكارها إلى ما قدمته الأندلس من نموذج حضاري وإنساني، وأن تعايش الديانات السماوية الثلاث في ظل الإسلام بالأندلس العربية يظل حلمًا إنسانيا مفتوحًا على المستقبل"(٣).

(١) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، صـ١٦ بتصرف واختصار.
(٢) المرجع السابق، صـ٢٣.
(٣) يُنظر: المرجع السابق، صـ٦ وما بعدها.

ولا شك أن "ماريا" في حديثها عن الحداثة إنما تَقصد تلك النظرة والرؤية المنفتحة والمتقبلة للحوار، والعاشقة للتحديث والابتكار، والاستفادة من المعطيات العلمية الجديدة، إنها الإبداع والمبادرة والأخذ بتلك الروح الحداثية، إن صحت التسمية "روح الحداثة"، لا تلك الحداثة – بواقعها أو تطبيقاتها الغربية – التي تُعلن القطيعة بينها وبين الدين، وتريد تجاوز الدين بمبادئها "العقلانية، والإنسية، والتاريخية"، إذ لم يُوجد ذلك في حضارة الأندلس.

وتصف "مارغريتا لوبيز غوميز"[١] السبب في تسامح حضارة الأندلس، وأنه يَكمن في الاندماج والتسامح الديني الذي جسده الإسلام، فتقول: "لقد خلق الإسلام توافقًا واندماجًا بين حضارتين متضادتين، باستناده على فكره الكوني وصفة التسامح لمفهومه الديني، وباعتماده على قدرته الهائلة في التمثل والإبداع، وميله المتميز إلى التجريب والاختبار، ثماراً عظيمة في بلاد الأندلس التي شهدت أهم اندماج عرقي وحضاري بين الشرق والغرب. وكانت قرطبة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، أيام خلافتي عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعاً في ذلك الوقت، والأكثر تحضراً في أوروبا، وشيئاً فشيئاً تحقق، من بلاد الأندلس، تواصل حضاري بين العالمين المتصارعين، وكانت تربة شبه الجزيرة الإيبيرية مثالاً لذلك التواصل الذي شمل قارة أوروبا برمتها"[٢].

فهذه نماذج من شهادات المفكرين المعاصرين تصف حضارة الأندلس بالتسامح والتعايش الحضاري، الذي كان الدين الإسلامي هو الأساس الركين في بثه ونشره في تلك الحضارة الأندلسية، إذ سرعان ما فقدت تلك الحضارة تسامحها وتعايشها بزوال الحكم الإسلامي في الأندلس، ومع ذهاب التشريع الإسلامي الحاكم في دولة الأندلس، وتولي ملوك النصارى حكم بلاد الأندلس ساقتهم أهوائهم، وسول لهم رؤساء ملتهم بنقض معاهد تسليم غرناطة، واستبدال التعايش والتسامح بالتعصب والاضطهاد لليهود والمسلمين على السواء.

---

(١) هي: مارغريتا لوبيز غوميز (Margarita Lopez Gomez) مديرة قسم التاريخ والفن في المؤسسة الغربية للثقافة الإسلامية في مدريد. يُنظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، جـ١، صـ٢٦٨.

(٢) إسهامات حضارية للعالم الإسلامي عبر الأندلس، مارغريتا لوبيز غوميز، جـ٢، صـ١٤٧٨.

المطلب الثالث: إمكانية الإفادة من التجربة الأندلسية للتسامح في الوقت الحاضر

لقد جسدت حضارة الأندلس واقعًا عظيمًا لقيم التسامح والتعايش السلمي، رغم اختلاف الأجناس والأديان؛ ذلك لأن التسامح قيمة كونية إنسانية تُسهم في بناء ونهضة الأمم والمجتمعات، وما كانت لحضارة الأندلس أن تبلغ هذا الرقي والمجد، بدون تسامحها وتعايشها المنقطع النظير.

وبعد طرد المسلمين من الأندلس، خسرت كل تلك النهضة التي دامت على مدار ثمانية قرون تحرسها مبادئ التعايش والتسامح، حتى رثاها كبار المستشرقين، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هبطت إسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط بعد أن بلغت قمة المجد، وأن انهار معًا كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان. وبانتهاء تلك السيادة العربية انتهت أعظم حضارة عرفتها أوروبا في القرون الوسطى، وانتهى عصر عظيم نعمت فيه إسبانيا بالرخاء والخير العميم، فارتفعت صناعاتها واستغلت مواردها وزاد عدد سكانها، وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون، بدرجة لم تعرف لها من قبل مثيلاً[1].

إن هذه الحضارة المتسامحة التي قامت في قلب العالم الأوربي، تُمثل دعوة واقعية لكل أمم الأرض خاصة الأمة الأوربية للتسامح والتعايش والحوار الحضاري، فقد تعايشت الديانات الثلاث في حرية تامة للعقيدة وممارسة الشعائر الدينية، وكفلت السلطة المدنية الحرية الفكرية والعملية في جو من التسامح والتعايش وتكافؤ الفرص، مما أسهم في هذا الصرح الحضاري.

دعوة لاحترام الأقليات المضطهدة في أنحاء العالم، دعوة لاحترام الخصوصيات الدينية والثقافة، دعوة لمحاربة التعصب الديني، والطغيان السياسي، والفكر الأوحد، الذي يُدمر أكثر مما يبني... أما عندما يسود التسامح والتعايش يَعم السلام والأمن، وقد أدرك عقلاء الغرب تلك القيمة في حضارة الأندلس، داعين لتمثلها والعمل بها، فالغرب اليوم يحتاج إلى "إعادة قراءة التاريخ الثقافي والأدبي في الأندلس؛ للوقوف على مدى غنى هذا التراث الإنساني، ولاستخلاص الدروس واستشراف المستقبل، لأنه كان نموذجًا حضاريًا وإنسانيًا متسامحًا،

(١) يُراجع: شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوربا"، هونكه زيغريد، صـ٥٣٥. وحضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، صـ٢٨٦.

أصر على أن تتعايش الديانات السماوية الثلاث في ظل الإسلام الأندلسي[١]، والذي يظل حلمًا إنسانيًا مفتوحًا على المستقبل"[٢].

إن الاختلاف سنة كونية يجب أن نحترمها، وهذا الاختلاف من شأنه أن يحقق التكامل فيما بين الناس.. إنه لمن المؤسف حقًا ونحن في عصر حوار الحضارات وتعدد المؤتمرات الدولية عن الحوار الحضاري، أن نجد الدولة الإسبانية – رغم ما يحياه العالم اليوم – "لم تتصالح كليًا مع ماضيها الإسلامي، أو حتى حاضرها، صحيح أن معاداة المسلمين في إسبانيا ليست باتساعها في بعض البلدان الأوروبية، لكنها لا تزال تكشف عن نفسها في الحملات المعارضة لبناء المساجد، من نوع المعارضة المحلية الشديدة لبناء الجامع الكبير بغرناطة، كما أبدت الكنيسة الكاثوليكية، التي تآكل عدد رعيتها وفقدت مكانتها المهيمنة في المجتمع الإسباني قلقاً متزايداً من الوجود الإسلامي، وعلق رئيس الأساقفة الإسباني البارز الكاردينال أنطونيو ماريا روكو فاريلا[٣] على إلغاء الحكومة الاشتراكية للطبقات الدينية الإلزامية والشائعات حول وضع أديان أخرى، منها الإسلام، على قدم المساواة مع الكاثوليكية قائلاً: بعض الناس يريدون أن يعيدونا إلى عام ٧١١م، وكأننا نسعى إلى محو أنفسنا من التاريخ"[٤].

مثل تلك التصريحات تُمثل عائقًا كبيرًا في سبيل التسامح والتعايش المشترك، وفي سياق المواجهة وتجلية الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين، يمكن العمل في عدة مسارات، منها

(١) ليس في الإسلام إسلام عربي أو إسلام أندلسي، أو غير ذلك، وإنما الإسلام دين واحد في العالم أجمع، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران:١٩].

(٢) الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ماريا روزا مينوكال، صـ٦.

(٣)أنطونيو ماريا روكو فاريلا بالإسبانية: (Antonio María Rouco Varela) ولد سنة: ١٩٣٦م، أستاذ جامعي، وكاهن كاثوليكي إسباني، شارك في المجمع المغلق ٢٠١٣م، تولى منصب كاردينال (منذ ٢١ فبراير ١٩٩٨م). الموسوعة الحرة ويكيبديا، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٤/١٠/١٥م، الرابط// https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%86%D8%B7%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%88_%D9%85%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%A7_%D8%B1%D9%88%D9%83%D9%88_%D9%81%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D9%84%D8%A7%D8%B3

(٤) الدين والدم – إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ترجمة د. مصطفى قاسم، صـ٥٣٢.

ما يلي:

١-مطالبة الحكومات الغربية بتجريم ظاهرة الإسلاموفوبيا، وسن قوانين تردع مثل هذه التخويفات وإثارة الرعب من الإسلام والمسلمين.

٢-العمل على نشر الدراسات والبحوث الاستشراقية، التي تظهر الحقائق الموضعية، عند دراسة الإسلام، فهي بالتالي أكبر معين على تصحيح الصورة في البلاد الغربية.

٣-العمل على إقامة أداة إعلامية ناطقة بكل لغات العالم الحية، خاصة البلاد الأوربية، تجلي الحقائق، وتعمل على رفع المظالم التاريخية، التي يُثيرها ويعمل على تأطيرها ثُلة من رجال الاستشراق، وأصحاب التعصب الديني. كما يكون من مهمة تلك الأداة نشر أعمال العنف والاضطهاد التي يُعاني منها المسلمون في شتى بقاع العالم.

٤-الدعوة لمؤتمرات عالمية في البلاد الأوربية، ودعوة المستشرقين المنصفين للحديث فيها؛ لإبراز روح التسامح والتعايش السلمي في الحضارة الإسلامية، وبخاصة في الأندلس تلك التجربة التي استمرت ثمانية قرون.

د/ إبراهيم عبد الصابور سعيد أحمد
مدرس بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
ت/ 01110491634
ibrahim104916@gmail.com.

الخاتمة

وبعد فقد تم التطواف في هذا البحث حول أهم مظاهر وآثار التسامح والتعايش السلمي في حضارة الأندلس، من وجهة نظر استشراقية معاصرة، وتبين مدى إنصاف أصحابها في وصف حضارة الأندلس في الكثير من القضايا التي تم مناقشتها، وهذا المنحى المنصف في الدراسات الاستشراقية يجب دعمه وإبرازه في الغرب؛ لإعادة تصحيح الصورة المشوهة عن الحضارة الإسلامية، وفي ختام هذا البحث خلص الباحث إلى عدد من النتائج والتوصيات، بيانها فيما يلي:

أولًا: أهم النتائج:

- أظهرت الدراسة الصورة المشرقة للتعايش الحضاري بين المسلمين وغيرهم في الأندلس، حيث تم توثيق العديد من مظاهر التسامح والتعايش السلمي، في المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية. وتشمل هذه المظاهر التسامح الديني، والحياة الثقافية المزدهرة، وتمثيل الأقليات في مناصب الدولة، وتعدد المدن والقرى التي ضمت مختلف الأديان، فمما تفردت به حضارة المسلمين في الأندلس، قبولها المتسامح للعديد من مظاهر التعدد اللغوي والثقافي والحضاري والعقدي، فلم يتم إقصاء أي توجه فكري معين.
- كشف البحث عن الدور الإيجابي للتسامح والتعايش في ازدهار الحضارة الأندلسية على مختلف الأصعدة، فقد شجع التفاعل بين الثقافات على تطور العلوم والفنون والآداب، وأسهم في ازدهار الحركة العلمية، وأثمر إنجازات معمارية وحضارية مميزة، كما عزز التسامح حركة التجارة والازدهار الاقتصادي.
- رصد البحث بعض الشبهات والانتقادات التي وُجّهت إلى تجربة التسامح في الأندلس وتم تفنيدها، ويُعد هذا الجانب مهمًا في الوصول إلى صورة متوازنة وموضوعية من كافة الجوانب.
- أظهر البحث أن تجربة التسامح في الأندلس كان لها تأثير كبير على الحضارة الأوروبية، سواء على الصعيد اللغوي والثقافي أو الاجتماعي والاقتصادي، مما يؤكد أهميتها

وقيمتها الحضارية، فمن محاسن الحضارة الإسلامية عدم احتكارها للمعرفة.

- انتهى البحث إلى إبراز إمكانية الاستفادة من تجربة التسامح الأندلسية في الوقت الراهن، في ظل الحاجة إلى تعزيز قيم التسامح والتعايش بين مختلف الثقافات والأديان في العالم المعاصر.

ثانيًا: أهم التوصيات:

ومن خلال البحث يمكن التوصية بعدة أمور، من أهمها ما يلي:-

١-الاهتمام بدراسة الكتابات الاستشراقية المعاصرة، لاسيما في جانبها المنصف، وضرورة التعاون بين المؤسسات العلمية والثقافية المختلفة في مراجعة الكتابات الغربية عن الحضارة الإسلامية.

٢-ضرورة إجراء مسح شامل للآراء والتحليلات التي قدّمها المستشرقون المعاصرون حول الحضارة الإسلامية، فهذا سيكشف عن أحدث التوجهات في تقييم التجربة الحضارية مما يُسهم برد الكثير من المغالطات الاستشراقية عن الحضارة الإسلامية، ويتطلب ذلك التركيز على الدراسات والأبحاث الحديثة لرصد تطور هذه الرؤى والمقاربات النقدية.

٣-من المهم دراسة المناهج النقدية التي اتبعها المستشرقون في تناولهم للحضارة الإسلامية بشكل عام، فمن شأن ذلك أن يكشف عن المرجعيات المعرفية، والأطر الفكرية التي ارتكزوا عليها، ويكشف كذلك أي تحيزات أيديولوجية، أو سياسية قد تؤثر على موضوعية تلك الدراسات، كما يتطلب ذلك تقييم دقة توظيف المصادر والوثائق التاريخية.

٤-ينبغي ربط موقف المستشرقين في العديد من دراساتهم عن الإسلام بالسياقات التاريخية، والسياسية المعاصرة لهم، فلا شك أن تاريخ الدراسات الاستشراقية اعتراه الكثير من التطورات، مما يُثبت بشكل أو بآخر ارتباط تقييماتهم بالأجندات الثقافية والسياسية السائدة في بلدانهم، وأن لها انعكاسات لخلفياتهم الاستشراقية في دراستهم عن العالم الإسلامي.

٥- إجراء دراسة نوعية عن إسهامات المستشرقين في صياغة الصورة الغربية عن الحضارة الإسلامية، وتتبع كيفية تشكيل وتطور هذه الرؤية الاستشراقية، فإن ذلك سيساعد على فهم انعكاساتها على الثقافة والسياسة الغربية المعاصرة، ومن ثم مناقشة إمكانات إعادة

صياغة هذه الرؤية في ضوء المعطيات الجديدة.

٦-ينبغي تقييم إمكانية الإفادة من تجربة الأندلس للتسامح والتعايش في الحاضر والمستقبل، واستخلاص الدروس والقيم الحضارية التي يمكن استلهامها من هذه التجربة، وفتح آفاق لتوظيفها في معالجة ومواجهة تحديات التطرف والصراعات المعاصرة؛ وصولاً إلى تقديم رؤى مستقبلية لتعزيز قيم التسامح والتعايش بين الثقافات والحضارات وأهلها.

وفي الختام ... أسأل الله ﷻ أن يتقبل هذا العمل، وأن ينفع به طلاب العلم، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولًا: المراجع العربية:

١) أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، د. فريد الأنصاري، ط١ دار السلام- القاهرة، سنة: ٢٠٠٩م.

٢) **إحراق طارق بن زياد للسفن أسطورة لا تاريخ**، د/ عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع – القاهرة، ط١، سنة: ١٩٩٥م.

٣) **الأعلام**، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، سنة: ٢٠٠٢م.

٤) **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، سنة: ٢٠٠٣م.

٥) **تاريخ علماء الأندلس**، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو الوليد، المعروف بابن الفرضي، عنى بنشره وصححه، ووقف على طبعه: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، سنة: ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

٦) **تخجيل من حرف التوراة والإنجيل**، صالح بن الحسين الجعفري أبو البقاء الهاشمين، تحقيق: محمود عبد الرحمن قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، سنة: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٧) **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٢، سنة: ١٩٩٩م.

٨) **حوار الحضارات كأفق للتعايش السلمي**، عبد الرحمن خرشي، ومحمد بومانة، مجلة الناصرية للراسات الاجتماعية والتاريخية، مجلد ١٠، عدد:١، سنة: ٢٠١٩م.

٩) **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، د/ أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية، سنة: ١٩٦٨م.

١٠) **دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر**، محمد عبد الله عنان، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة: ٢٠٠٣م.

١١) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت –، ط٢، سنة: ١٩٨٠م.

١٢) **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، سنة: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

١٣) **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى، عنى بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: ليفي بروفنسال أستاذ تاريخ المغرب العربي بجامعة الجزائر، ومعهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس، ومدير فخري لمعهد الأبحاث المغربية العليا بالرباط، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط٢، سنة: ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

١٤) **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس**، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، ط٢، سنة: الطبعة: الثانية، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م.
١٥) **غوستاف لوبون في الميزان**، د/ شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر – بيروت، ط١، سنة: ١٩٩٠م.
١٦) **المجتمع الأندلسي في العصر الأموي**، د/ حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، ط١، سنة: ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
١٧) **المختار في أصول البحث العلمي**، د/مختار عطا الله، ط١، دار الهاني، القاهرة، مصر، ٢٠٢٢م.
١٨) **المسالك والممالك**، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، سنة: ١٩٩٢م.
١٩) **المستشرقون**، نجيب العقيقي، دار المعارف القاهرة – مصر، ط٣، سنة: ١٩٦٤م.
٢٠) **مشكلات الحضارة – وجهة العالم الإسلامي**، مالك بن نبي، تقديم عمار طالبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الكتاب المصري، سنة: ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.
٢١) **معجم البلدان**، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط١، سنة: ١٩٩٥م.
٢٢) **الملل والنحل**، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي، د.ت.
٢٣) **مناهج البحث العلمي**، د/ محمد سرحان المحمودي، دار الكتب – صنعاء، ط٣، سنة ٢٠١٩م.
٢٤) **مناهج وأساليب البحث العلمي (النظرية والتطبيق)**، د. ربحي مصطفى عليان، ود. عثمان محمد غنيم، ط ١، سنة: ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان– الأردن.
٢٥) **الموحدون في الأندلس**، داود عمر سلامة عبيدات، دار الوضاح للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، سنة: ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م.
٢٦) **موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، العصر الأموي**، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، شركة سفير، سنة: ١٩٩٦م.
٢٧) **الموسوعة العربية الميسرة**، بإشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب – القاهرة، سنة: ١٩٦٥م.
٢٨) **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، د/ عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، ط١، سنة: ١٩٩٩م.
٢٩) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي، عالم الكتب، بيروت، ط١، سنة: ١٤٠٩هـ
٣٠) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، سنة: ١٩٩٤م.

ثانيًا: المراجع المترجمة:

٣١) **إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود**، أميركو كاسترو، ترجمة: على إبراهيم منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ضمن إصدارات المشروع القومي للترجمة، سنة: ٢٠٠٣م.
٣٢) **الإسلام في الغرب – قرطبة عاصمة العالم والفكر**، روجيه غارودي، ترجمة: د/ ذوقان قرقوط، دار

دمشق، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٣٣) **إسهامات حضارية للعالم الإسلامي عبر الأندلس**، مارغريتا لوبيز غوميز، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٢، سنة: ١٩٩٩م.
٣٤) **إشبيلية الإسلامية، تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي**، رفاييل بالنثيا، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٢، سنة: ١٩٩٩م.
٣٥) **الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح**، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري، دار توبقال للنشر بالمغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة: ٢٠٠٦م.
٣٦) **تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية**، ليفي بروفنسال، ترجمة: على إبراهيم منوفي، وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومي للترجمة، ط سنة: ٢٠٠٢م.
٣٧) **تاريخ الفكر الأندلسي**، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١م.
٣٨) **تاريخ مسلمي الأندلس الموريسيكيون، "حياة ومأساة أقلية"**، أنطونيو دومينقير، وبرناد بنثنت، ترجمة عبد العال صالح طه، دار الإشراق للطباعة والنشر، ط١، سنة: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٣٩) **التاريخ الوجيز لمحاكم التفتيش بإسبانيا**، جوزيف بيريز، ترجمة: مصطفى أمادي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة – أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، سنة: ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.
٤٠) **حضارة العرب في الأندلس**، ليفي بروفنسال، ترجمة: ذوقان قرطوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.
٤١) **حضارة العرب**، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة القاهرة – مصر سنة: ٢٠١٢م.
٤٢) **الدين والدم – إبادة شعب الأندلس**، ماثيو كار، ترجمة د. مصطفى قاسم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
٤٣) **شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوربا"**، هونكه زيغريد، ترجمة: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، سنة: ١٩٩٣م.
٤٤) **العرب لم يستعمروا إسبانيا – ثورة الإسلام في الغرب**، إغناسيو أولاغوي، ترجمة: أ.د/ على المنوفي، د/ طارق شعبان، تقديم: د/ مصطفى الفقي، مركز نهوض للدراسات والنشر، بيروت، ط١، سنة: ٢٠١٩م.
٤٥) **في سبيل حوار الحضارات**، روجيه غارودي، تعريب عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت – لبنان، ط٤، سنة: ١٩٩٩م.
٤٦) **قصة العرب في إسبانيا**، ستانلي لين بول، ترجمة: على الجارم بك، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، د.ت.
٤٧) **لماذا لا توجد عصور وسطى إسلامية**، توماس باور، ترجمة: د/ عبد السلام حيدر، منشورات الجمل،

بيروت، لبنان، سنة: ٢٠٢٠م.

٤٨) **المستعربون: نَقَلَة الحضارة الإسلامية في الأندلس**، مارغريتا لوبيز غوميز، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٢، سنة: ١٩٩٩.

٤٩) **المسلمون في الأندلس**، رينهرت دوزي، ترجمة: أحسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٤م.

٥٠) **من العرب إلى الموريسكيين (٧١١ – ١٦١٦م): حلقة من تاريخ إسبانيا**، أبحاث مؤتمر، قرطبة الدولي، ٢٦ – ٢٨ سبتمبر ٢٠١١م، مجموعة من المستشرقين، ترجمة: د/ سري عبد اللطيف، د/ جمال عبد الرحمن، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ط الكويت، سنة: ٢٠١٤م.

٥١) **موسوعة لالاند الفلسفية**، أندريه لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، سنة: ٢٠٠١م.

٥٢) **الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى**، ميكيل دي إيبالثا، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، ط١، سنة: ٢٠٠٥م.

٥٣) **اليهود في إسبانيا المسلمة**، ريموند شانيد لين، ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير الدكتورة / سلمى الخضراء الجيوسى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٢، سنة: ١٩٩٩م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

54) Gregorio de Tours y la hagiografía del siglo vi. Aproximaciones histórico-teológicas al libro Sobre las virtudes de san Martín, Marcelo aguirre durán, ANUARIO DE HISTORIA DE LA IGLESIA / VOL 29 / 2020

55) Historia de Los Mozarabes de Espana, Francisco J Simonet: Volume., Madrid 1879,

56) History Of The Moorish Empire in Europe, Samuel Parsons Scott Volume, Philadelphia, 1904.

57) journal article, Américo Castro 1885-1972, Myron A. Peyton, Hispania, Vol. 56, No. 2 (May, 1973), Published By: American Association of Teachers of Spanish and Portuguese.

58) Maria Rosa Menocal, 59, professor of medieval Spain, by Sally A. Downey, Inquirer Staff, Published Oct. 29, 2012, Date of visit: 8/21/2024.

59) Nadia R. Altschul, MLN, Johns Hopkins University Press, Volume 128 Number 2, March 2013 (Hispanic Issue), pp. vii-viii.

رابعًا: الصحف والمجلات:

٦٠) **مجلة التراث العربي** – مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ٩١ – السنة الثالثة والعشرون – يوليو: ٢٠٠٣ – رجب ١٤٢٤هـ. بحث بعنوان: خطبة طارق بن زياد بين الشك واليقين، سعد بوفلاقة.

٦١) **مجلة العربي**، العدد: ٥٦٢، مقال: إسبانيا في تاريخها، المجلس الإيطالي للثقافة والفنون والآداب، سبتمبر، سنة: ٢٠٠٥م.

٦٢) **مقال: هندسة معمارية، العمارة الأندلسية: أروع نماذج العمارة الإسلامية في الأندلس**، موقع ويناس، تاريخ النشر: ٢ يونيو، ٢٠٢١م. تاريخ الزيارة: ٢٠٢٤/٨/١٣م، الرابط// https://www.weetas.com/article/ar/andalusian-architecture-glorious-islamic-architecture-andalusia-arv/

خامسًا: المواقع الإلكترونية:

٦٣) موقع أبجد، الرابط// https://www.abjjad.com/author

٦٤) موقع// https://www.arageek.com/bio/gustave-le-bon

٦٥) موقع مؤسسة هنداوي، الرابط// https://www.hindawi.org/contributors/36247486/

٦٦) موقع// https://www.newadvent.org/cathen/07018b.htm

٦٧) موقع جامعة مونستر، تاريخ الزيارة/ ١٥/١٠/٢٠٢٤م. الرابط// http://www.uni-muenster.de/ArabistikIslam/Mitarbeiter/bauer.html

٦٨) مدونة العباب، سلسلة المستشرقين، منشور بتاريخ ٣/٩/٢٠١٤م. الرابط: http://zahirhinai.blogspot.com/2014/09/3.html?m=

٦٩) موقع عريق، الرابط// https://areq.net/m/%D9%87%D9%86%D8%B1%D9%8A_%D8%AA%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D9%84%D8%B2_%D9%84%D9%8A.html

٧٠) موقع الموسوعة العربية، الرابط// https://arab-ency.com.sy/ency/details/3970/9

٧١) وموقع ويكيبيديا، الرابط// https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%88%D8%B1%D9%85%D8%A7%D9%86

٧٢) وموقع ويكيبيديا، الرابط// https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%88%D8%B1%D9%85%D8%A7%D9%86

٧٣) موقع بلدية بادوا، (كويمبرا – البرتغال) تاريخ الزيارة/ ١١/١٠/٢٠٢٤م، الرابط// https://www.comune.padova.it/coimbra-portogallo

فهرس المحتويات

الملخص:..... ٢٩٦
Abstract:..... ٢٩٨
المقدمة..... ٣٠٠
التمهيد: نبذة تاريخية عن إسبانيا() قبل الفتح الإسلامي..... ٣٠٧
المبحث الأول: مظاهر التسامح والتعايش في الأندلس..... ٣٢٠
المطلب الأول: التسامح الإسلامي مع أهل الأديان الأخرى في الأندلس. ٣٢٠
المطلب الثاني: الحياة الثقافية والعلمية المزدهرة ومشاركة غير المسلمين فيها. ٣٢٧
المطلب الثالث: تمثيل الأقليات في مناصب الدولة وإداراتها ٣٣٢
المطلب الرابع: زواج المسلمين من غير المسلمات ونظام الأحوال الشخصية ٣٣٦
المطلب الخامس: نماذج لمدن وقرى كانت تضم مختلف الأديان..... ٣٣٨
المطلب السادس: وثائق الصلح بين المسلمين والنصارى. ٣٤٠
المبحث الثاني: آثار التسامح على الإنجازات الحضارية..... ٣٤٢
المطلب الأول: تطور العلوم والفنون والآداب نتيجة للتفاعل بين الثقافات. ٣٤٢
المطلب الثاني: ازدهار الحركة العلمية والترجمة بفضل التبادل المعرفي..... ٣٤٦
المطلب الثالث: الإنجازات المعمارية والحضرية في ظل بيئة التعايش السلمي. ٣٥٠
المطلب الرابع: تأثير التسامح على حركة التجارة والازدهار الاقتصادي. ٣٥٣
المبحث الثالث: أبرز الشبهات حول التسامح والتعايش السلمي في الأندلس. ٣٥٧
المطلب الأول: حالات التمييز والاضطهاد للأقليات. ٣٥٧
المطلب الثاني: تطرف الفرق الدينية والانغلاق على الذات. (شهداء قرطبة). ٣٥٩
المطلب الثالث: موقف رجال الدين المتشددين تجاه التسامح. ٣٦٤
المطلب الرابع: تأثير الصراعات السياسية والحروب على التعايش. ٣٦٦
المبحث الرابع: آثار التسامح الأندلسي في حضارة أوربا والعصر الحديث. ٣٦٩
المطلب الأول: آثار حضارة الأندلس على أوربا: ٣٦٩
أولًا: التأثيرات اللُّغوية والثقافية: ٣٧٠
ثانيًا: التأثيرات الاجتماعية: ٣٧٣
ثالثًا: التأثيرات المادية الاقتصادية: ٣٧٥
المطلب الثاني: موقف المفكرين الغربيين من تجربة التسامح الأندلسية. ٣٧٧
المطلب الثالث: إمكانية الإفادة من التجربة الأندلسية للتسامح في الوقت الحاضر..... ٣٨١
الخاتمة..... ٣٨٤
أولًا: أهم النتائج: ٣٨٤
ثانيًا: أهم التوصيات: ٣٨٥
المصادر والمراجع..... ٣٨٧
فهرس المحتويات..... ٣٩٢